نبيل مواجي

فواصل مزعجة

رواية

دار ومضة

فواصل مزعجة

رواية

عنوان الكتاب: فواصل مزعجة
المؤلف (ة): نبيل مواجي
التخصص الأدبي: رواية
الطبعة الأولى: 2021
رقم الإيداع: 978-9931-719-18-9
النّاشر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة
إيميل: wamdaedition@gmail.com
Dar.wamda7@gmail.com
هاتف: 0021 3657300415
المديرة العامة: سميرة قنون
تصميم: إيمان عبد الحكيم

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الأراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر
يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية
أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

نبيل مواجي

فواصل مزعجة

رواية

دار ومضة
للنشر والتوزيع والترجمة

ليس المجاراة من أجل إثبات الذات، ولا من أجل الانسياق في تجارب سبقنا إليها بعض المؤلفين، بل من أجل أخد العبرة من جمل أبت إلا أن تنتظم رغما عنها تعكس خلاصة هذا وذلك، عبر تلاحق عقول لإيقاظها والسعي خلفها من أجل تغيير ما تحاول إخفاءه مقتنعة بأنه الأفضل.

إن السقوط عند سفح الجبل يزيد من العزيمة للمحاولة مرات ثم الاستمرار، إذا كان السقوط من أجل شيء ثمين يستحق النظر فيه والتمسك به، ولكن إذا كان ما تستلهمه العقول غير قادرة على تفسيره، فانسياقها بلا شك سقوط من غير نهوض أو غير مبرر، شدة التريث في الغوص بين صفحات اكتظت بالجمل والمقولات ينتصر دائما، عكس اللهفة إلى إعادة إسقاطها في واقع بلا حدود ولا انتظار، لن يرفع من شأن تلك المحاكاة التي أكلتها السنين قبل بلوغها هنا.

أحاول من خلال هذه الصفحات، فتح باب آخر للعبور بين وقائع انسلت من مقولة رضخت إليها في دهشة، كأنها رأت فنان يعكس آخر اللمسات فيها، فانجرفت تبحث عن معناها كل مرة تدوسها بلا رحمة، وتعانقها في شفقة تتلاعب بها كأرجوحة مل الطفل في مراقبتها، سأختزل كلامي بعد هذه الأسطر فيما هو آتي......

مقدمة:

بين مفردات مقولة مجهولة لأحد المؤلفين يسكن صراعها الداخلي، يجالسها في عاطفة تولّد فيها فنون الغوص ليريها معنى الحياة، فتصبح أسيرته في كل مرة تفتح فيها كتابها المفضل، تلتهب الأعماق وتصغي إلى سقوطها كلما انقضت ليلة، ويحرك بداخلها تلك الزهرة اليافعة نحو شقاء متجدد، تدنو صامتة كأنها تنظم إلى موكب التائهين، ولم تفق من هذه الغيبوبة، ولم تعترف أنها تسلك الطريق الخطأ، بين انفصال وأوهام تحاصرها في ضياع أبدي، تبتعد حقيقة تلك المفردات التي تتكرر في لوحة هاربة من يد الفنان، تحمل نهاية يرويها رماد السنين الذي تفوح منه رائحة الحريق.

لم يتجرأ أحد يوما ما وقال إن عصير الليمون طعمه حلو.

هي تلك البداية لسعادة تعيسة ألهمها أقوال المؤلفين، اختصروا تجاربهم في كلمات رتبت في جمل والجمل في فقرات، راحت تستلهم منها وتجمعها بشغف، تجلس وحدها في الساحة العمومية تقلب ذكرياتها في تحفظ، والهدوء يستقر بين خطوط وجهها لا يترك مجالا للشك، تداعب صفحات كتاب حجزت له مكان على تلك الطاولة، وقلم صار يجوب رحلاتها أينما حلت، وفي لحظة من الذهول توزع نظراتها وتتمعن في سطر من بين آلاف السطور كان لأقوال أحد المؤلفين " التعاسة جميلة حين تليها سعادة دائمة."

ما هذه التعاسة التي يتحدث عنها؟

ضايقها الشرود لتعود بتفكيرها بعد وقت قصير، فتتفاجئ بصديقتها تنتصب أمامها، صديقة ذات القامة الطويلة واللباس المتبجح، ترفع وجهها نحوها ثم تقف من مكانها لتبادلها التحية، بين عناق وقُبَل يبدأ

حفل الكلام قبل أن يجلسا، في هذه الأثناء يتقدم النادل ليضع خدماته على الطاولة قائلا:

هل تشربان شيئا؟

تسبقها للإجابة على السؤال وهي تمسك بيدها:

نعم، أفضل عصير الليمون بلى كأسين من عصير الليمون.

ثم تبتسم صديقتها ويكملان ما بقي للحديث من زمن على وقع مجموعة من استفسارات، تطايرت من دون عناوين إنه حديث النساء لن يتوقف إذا لم يفترقا، في هذه الأثناء يرن الهاتف بحقيبة يدها المزركشة بالألوان، فتنظر إليه من دون أن تجيب على المتصل ثم تنهض مهرولة وتودعها تاركة وراءها علامة استفهام.

تسحب كل اللحظات العابرة من تفكيرها، لتعود أدراجها وتجمع المعاني التي قد تناثرت من هذه المقولة دون أن تفهمها، فهذه المرة لن تقتصر على معان ظاهرة، بل تتجاوز إلى تجارب تقدم بقاياها على طبق

أمام حسناء تعيش الهدوء من دون مقدمات، تبحث في وجوه المارة عن مرآة لنفسها لكن كيف ستجد ظلها الذي طالما هو قريب منها؟

تتبعثر نظراتها في كل اتجاه من دون خجل، وتجعل من المكان الفارغ أمامها محطة استقبال لكل زائر، ليُنْزل الستار على شخصيات من تأليفها وتصفق للجميع في حضرة ذكرياتها، التي تجتمع مع الفنون المتبقية بكل طبوعها، تراوغ فتنتصر و تمد طريقها نحو فنها الأبدي من مكانها الذي لا تبرحه لساعات طويلة، تنسج مسرحيات تعددت وتفننت في حُبكها ثم ترمي على كل واحدة وردة، ليخطر ببالها تصاميم أخرى وألبسة أخرى، وفي قمة من التأمل تنهي كأسها الذي تفوح منه رائحة الليمون، وتتنهد لتكمل ما تبقى من خيبة املها الوحيد نحو هذا الفن، فتبعثرت الشخصيات لتقصى من منصة الشرف ثم تنهض مرة أخرى وتغير الحوار. إنها تتمعن في مقولة هذا المؤلف الذي بدا لها غريبا، وتؤجل القضية بعيدة عن كل الاقتراحات دون أن تلغي استعدادها لمسرحية أخرى.

يتوالى جلوسها في نفس المكان والفضول ينتابها بين الحين والآخر، تقع عينها على تلك المقولة التي كتبت في زاوية ضيقة من كتابها المفضل،

تحاول تجنبها كل مرة كالسارق في لباسه المعتاد، يتسلل في غفلة من ضحاياه فيُعلن الخبر في عناوين عريضة "الضحية في لباس مجرم"، تمالكت نفسها وانتزعت ثوب الخوف مندهشة في أمرها حول مرافعتها الأولى، ليبتسم في حضرتها أحد الممثلين.

ممثل جاد في لباسه قار في عمله، غير متنكر يجلس في طاولة مقابلة لها من تلك الساحة العمومية، ينظم أفكاره بالطرق الجميلة ويعزف على وحدته في صمت يتراكم مع مرور الوقت، وهو يرسل بنظراته اتجاهها من دون توقف، مسدلا شراعه للإبحار غير مرتبك من قضاياه المتعددة الجنح، كأنه يؤلف مسرحيات بنفس عناوينها وبنفس وقائعها. عناوين مرتبة بين يديه، يشتم منها رائحة الحبر تختلط بعبق الورد المترامي الأطراف بجانبه في البستان، ينظمها صاحبها بتفان فاختار لكل وردة طريقها ولكل لون عنوانه، انتهت دهشتها لتصدر القرار ليس الأول أو الأخير، هذا القرار لم ترتب له ولم ترافع عنه، فشكت أن أحد ما يراقبها عن كثب لتهم بإغلاق ملفاتها وتغادر المكان.

يتمادى في قراءة العناوين والبحث عما يجدب انتباهه، وما يناسب الحركة الأخيرة في روايته، بين فينة وأخرى يلاحقه البستاني بنظراته في استياء كبير ظنا أنه أحد المتطفلين على أعراض الغير. كم كانت ساعات جلوسه طويلة من غير مبالاته عما يختلجه من إحراج. هو هكذا مند أن تحصل على عمل قار يوفر له فرصة العيش الكريم، توالت نظرات البستاني إليه من غير شفقة مرددا مع نفسه:

ما كان لهذا أن يحدث لو انفصل البشر عن بعضهم البعض، لكن كلنا عشنا نفس اللحظات.

في وقت ليس ببعيد، كان من أشهر المؤلفين الذين تشبعوا بثقافات متنوعة، وأصدروا العديد من المؤلفات، وسافروا إلى الكثير من البلدان تاركا وراءه شهرته، وأراءه المتعددة في المقالات والمجلات تغزو الأسواق ويتجمهر عشاقه حولها، إلى حين حصوله على عمل كمسؤول للقناة الجديدة اهتمت بالتحقيقات، ينادي على النادل من بعيد، وفي حين غرة يقترب منه البستاني يستفسر عن أمره ولم يكن سوى كلمات تبادلاها. يتعجب المسؤول من الموضوع ويقدم اعتذاره، ويرفع قبعته الرمادية تاركا

بقشيشا متواضعا للنادل ثم ينصرف بسيارته نحو شقته، هناك على أطراف المدينة في شارع ضيق وهادئ لينهي ما بقي من روايته الجديدة، فبالرغم من حصوله على فرصة عمل كمسؤول للقناة، إلا أنه مازال يؤلف روايات بعضها حقيقية يستمد أحداثها من تجاربه الواقعية.

ما من شك في أن هذا هو حل المشكلة الغامضة في أحداث مؤلفاته التي لم ينته منها بعد، فاختار لطريقته نوعا خاصا في إكمالها بمنتهى البساطة بحيث لا يستطيع أحد تفسيرها، كما كان ينتهج طريقتين مفتوحتين لرواياته الغامضة. فالطريق الأول هو اختيار سلاح غير عادي

لإخفاء الملابسات، والآخر اختيار الأماكن المنعزلة والهادئة حيث يسكن ضحاياه، فهذا تفسير مناسب لما تحتويه روايته الجديدة، ومن خلال انتقاله بين الأماكن وتحديد نقاطه بدقة.

لم يكن متوقعا أن تحجز لنفسها مقعدا على متن طائرة متجهة خارج البلاد، لتلتف حولها مشاعر الحنين لتلك الساحة فاقدة جلساتها هناك، ترتفع الطائرة بين السماء والأرض يتناقص صوت محركها، تقترب

من النافدة ببطء تريد العودة.... لن تعود، وقبل أن تحاول وضع سماعتها، قابلتها المضيفة وهي تحمل في يديها كأس عصير الليمون وآخر للبرتقال وحاولت أن تسألها:

أيهما تريدين؟

فردت دون انتباه:

أريد كأس عصير الليمون من فضلك.

تأخذه بنعومة أصابعها، كانت تدرك دوما أنها لا تتغير رغم المسافة التي تزداد بعدا مع مرور الوقت، فلا بديل لها إلا الاستسلام، إنها ستعود يوما ما وستضيف تفاصيل أخرى مثيرة حتى تصبح مسرحياتها أكثر جرأة، وتستمر المضيفة في الاهتمام بركابها، راحت تعانق تفاصيل حياتها في غمرة من الحزن الممزوج برائحة الليمون، وهي تنظر في تلك المقولة بعدما أخرجت كتابها المفضل، و لم تمض إلا ساعات حتى يسرقها النعاس، لينحني رأسها قرب الزجاج وتؤجل تدوين مخلفات القضية إلى وقت لاحق، جميلة حين تغمض عينيها في ارتياح لتظهر ملامح أخرى تستهوي

كل ناظر إليها، بعد مدة فاقت أربع ساعات من الرحلة في السماء، ترفع المضيفة هاتف الطائرة قائلة:

أربطوا أحزمتكم نحن على وشك الهبوط.

لتنهض فجأة من دون سابق إندار، وتسقط معها التمثيليات التي كانت تألفها في حلمها الآخر، تتوقف الطائرة في مطارها المعتاد المحاط بسياج

على مدى كيلومترات، وينزل الركاب الواحد تلوى الآخر. ها هي تبحث عمن ينتظرها لمساعدتها في حمل الحقيبة، ولم تكن سوى حقيبة متوسطة الحجم تتثاقل ماشية بها، يشد نظرها أحد سائقي سيارات الأجرة، كما لو كان أحد شخصياتها التي اعتادت على توزيع الابتسامات عليها دون ملل، توقفه ثم تطلب منه نقلها إلى وجهتها المعلومة من ذلك الشارع المكتوب في ورقة صغيرة، تسير السيارة في شوارع المدينة متجهة إلى المكان المطلوب، فاقتنعت أنها لن تغير الحوار بعدما أقصيت من منصة الشرف، ويبقى الحنين يجذبها إلى الساحة العمومية.

يتبادلان النظرات في المرآة الأمامية، تارة ترفع نظرها اتجاهه وتارة تستدير نحو النافدة تخطط لمبتغاها، وتجمع كل قوتها في استغراب من هذا السائق، كأنها تمت الصفقة في إنتاج مقدمات مغرية، ثم ألقت نظرة طويلة جعلته يبادر في الحديث.

من أي بلد أنت؟

تجيبه وقد تسارعت دقات قلبها:

من أي مكان وما أدراك أنت؟

يرد عليها السائق في احترام:

اعذريني إنه مجرد فضول أراك مشتتة الذهن.

تستدير مرة أخرى نحو النافذة، وتنفرج الشفاه عن ثناياها ضاحكة بلا صوت فلا أحد يعرف معناها، ليهدأ بالها وتوافق على شخصيتها الأولى مهتمة بهذا الحوار غير مستعدة للهرب منه وترد عليه:

لا عليك إني أزور هذا البلد لأول مرة.

يطمئنها السائق ثم يقول:

إني أعرف أحوال السفر المتعب فالوجهة قريبة من هنا.

تصل بعد مغيب الشمس بقليل إلى مقر تكوين الصحفيين الذي راسلته قبل شهرين وتم قبولها فيه، فينزل السائق بسرعة ويقدم خدماته على طبق جاهز، كانت مسألة وقت فقط ليتبادلا المعلومات الشخصية، فانتهت مرافعتها الثانية. تتجه مباشرة نحو شقتها في الطابق الثاني، تمّ حجزها مقابل شاطئ البحر الهادئ، تستلقي متنهدة من شدة السفر فملفاتها لا تدري أين وضعتها، وكتابها المفضل يذكرها بتلك المقولة التي تسترجعها بصوت خافت، كلما نظمت الفوضى بين حواسها معلنة النوم إلى اليوم الموالي.

تنهض في الصباح الباكر لتطل من النافدة التي صممت بطريقة حضارية وأوتوماتيكية، وهي تحمل في يدها كأس عصير الليمون الذي حضرته بنفسها، لقد اعتادت على شربه من اجل الحفاظ على أناقتها وقوام جسمها، ثم تتفقد حقيبتها حيث رتبت طاولتها الصغيرة واضعة

فوقها أغراضها، وجلست تسترجع أفكارا باحت لها بالرغبة الشديدة للعودة، كم كانت تمتزج بالحنين لوالدتها، تنهي العصير وتتهيأ لمغادرة شقتها بعد أن اتصلت بالسائق، الذي وضعته في قائمة الشخصيات مكملة ذاك الحوار القديم قائلة:

أنا متجهة نحو الساحة التي تتوسط المدينة.

كأنها تعرفها منذ زمن.

يرد عليها في لهفة من أمره قبل أن يغلق الهاتف:

جيد سنلتقي هناك.

تنزل أدراج المقر متجهة نحو الساحة الكبيرة التي تتوسط المدينة تزينها أشجارا تساوت في الطول، بجانبها نافورة تستهوي الناظر إليها من خلال حركة مياهها في السماء، وبعض الحمام؛ الطائر تارة والمتجمع تارة أخرى في لوحة فنية يقاسمها أطفال صغار يجرون وراءها، وذاك الشيخ الهرم ألف بيع الأشياء القديمة كل صباح.

تختار مكانها حول طاولة صغيرة وضعت عليها باقة أزهار مختلفة الألوان، وفتحت كتابها مباشرة على الصفحة التي تضم مقولة المؤلف، وبدأت تنقر بقلمها فوق الأحرف في هذه الأثناء تتوقف سيارة الأجرة، ليست مختلفة على ما اعتادت ركوبها، فتراه ينزل منها ببطيء لابسا نظاراته الشمسية وحاملا معطفه في يده كأنه خارج الخدمة بل في مواعدة جديدة مع حسناء، يمد خطواته اتجاهها في استعراض جديد لشخصية تبتعد عن خشبة المسرح لينتهي به المطاف جالسا بجانبها قائلا:

صباح الخير، كيف حالك؟

ترد وقد توزعت نظراتها عليه:

صباح النور، هذا أنت إنك مختلف عما كنت عليه في عملك.

هذا يدل على أنه يحب المفاجئات، ويتمنى ألا يكون شخصا ثقيل الظل عليها، فربما احتاجت إلى خلوة تجعلها تسترجع بعضا من وقتها في تلك الساحة العمومية الذي ظل الكرسي بجانبها فارغا، فجأة يجتثها من

صمتها الذي أغرقها في التفكير كيف تجعل من المقولة شيئا حقيقيا وهو يقول:

أتفضلين....

تقاطعه:

أفضل عصير الليمون ألا تدري أن طعمه حلو.

يغير الحوار في أخد وجدب بينه وبينها كتمثيلية حقيقية لم تؤجل وقائعها، ولم ينتظر أحد من معجبيهم لشراء التذاكر ومشاهدتهم قائلا:

مند أن رأيتك وأنت تراقبين هذا الكتاب، ما السر في ذلك؟

ليس من شأنه ولم يكن بمقدورها أن ترد عليه إلا بعضا من كلمات:

التعاسة.......السعادة......

لم يفهم ماذا تقصد بهذه الكلمات، ثم حاول أخذ الكتاب ليقرأ ما يحتويه وما عنوانه فرفضت أن تسلمه.

يطأطأ برأسه في خجل ويسألها:

لا يهم، تريدين جولة في المدينة؟

تنهض في صمت كبير حاملة ذلك الكتاب وتشير برأسها قائلة.

أريني أجمل الأماكن هنا.

لم يخطر ببالها أن السائق بدا متعلقا بمشاعرها، فيقترب منها رويدا رويدا ومستعدا لأن يكون الخادم المطيع لها، لتحكم عليه في غياب الأسماء الأخرى بالتمرد على عواطفها، وتوقع بلغة جميلة على مدى تقربه منها. فكل صباح تراه يهرول إليها يكاد يكون ظلها، إذا ما خرجت في جولة عبر شوارع المدينة بعد انتهاء حصصها في مقر التكوين، وقد تغيرت نبرة صوته وامتلأت بالمجاملات، وصار يتطلع لكشف سر ذاك الكتاب الذي لا يفارقها أينما حلت.

وفي أحد الأيام وهم يتجولون، اشترى لها رواية أخرى فاستحسنت الهدية لتعبر له عن مدى قبولها رغم تعلقها بكتابها المفضل، ثم راحت تسرد عليه السر وراءه وما يحمله من مقولة ألهمتها في غفلة من أمرها،

وتحضر للانسحاب البطيء بكل جرأة، وتتطلع لإلغاء الحوار لتكون في قمة السعادة مع غريب، تمكن في أيام معدودة من وضع تصميم آخر لمسرحيتها بكل بساطة وسلاسة. ففي كل مرة يفوز بمراهنات في حضرتها من غير استعداد لحسه الخفيف في الإنصات والمبادرة بالرد، فقد أسرتها طريقته الجدية وكادت أن تنسى ما جاءت من أجله، وما يدور في مخيلتها حول تلك المقولة التي بدا لها أنه من شطرها الثاني سعادة تدوم.

تباشر تكوينها كالعادة وكأي يوم مند وصولها، كم من أشخاص تعرفت إليهم وكونت صداقات معهم، وتعرفت على عادات كثيرة بمختلف طبوعها، تكثر اللقاءات بينهم: تارة مبرمجة وتارة أخرى عفوية، وكأن كل شيء

وقعت عليه دون الاطلاع على مضمون شخصيته، ليفتح الستار عليها في بهجة وتقتل بداخلها كل المرافعات، وراحت تراقب مشاعرها التي تتلاطم في كل حركة تقوم بها أثناء مقابلته، تتحمس والحماس يقتلها للدخول إلى قلبه من دون تأشيرة ومن دون عرض أزياء، فتسمح لنفسها بالغوص ولا

تذرك أن التنفس فوق السحاب غير ممكن، وأن السقوط في الهوى جبن لن يعيدها كما كانت.

وما بال الاثنين يتحركان في نفس الطريق؟

هو متمرد تفضحه الكلمات، وهي متلهفة لمعانقة أجمل الألحان غير مدركة لإيقاعها الغريب، الذي يؤجج في نفسيته تلك النشوة الآتية، ليرفع عن وجهه القناع فيظهر إنسانا آخر خلف المرآة اللامعة. إنسان يتكتم عن مبتغاه في وسط زوبعة يحاول جدبها إليها.

هنا يبدأ السقوط وتتجرد المقولة من معناها الخفي، فقد رأى فيها مؤلفها الخلاص الأخير، لتصبح بساطا أحمر تنام عليه كل لحظة معلنة هروبها من الواقع، فكشر السائق عن أنيابه في ليونة غير ضارة، ليتركها بين مد وجزر في لوحة تراجيديا لا يفهمها إلا هو، أضفى عليها تعاسة غيرت خطوط وجهها وانتشل الهدوء منها، وصار يغير فيها ما يشاء ويحركها كيفما يريد. وفجأة يختفي كمن ابتلعته الأرض أو ارتفع إلى

السماء، لتهدأ الزوبعة لكن يبقى غبارها على النافدة تجمعه بيديها المكسورتين كلما اقتربت منها، وتحدق فيه كل ليلة وتحترق به كل ثانية.

انقطع حبل الوصال واسودت الألوان في وجهها، راحت تهوم بأفكارها وتقلب أطرافها، معلنة تعاسة حقيقة لتحاكي وجه الليل وتراقب نجومه، بعد أن أزاحت الستار على تلك النافدة والرغبة في الانتحار لتموت ألف مرة، قد شتت تمثيلياتها المغرية وفاوض شخصياتها ليسقط الجميع وينتهي العرض.

تستيقظ في منتصف الليل مفزوعة بكوابيسها المنتشرة على صدرها، تسحب كل ظلع فيها وراحت تراقب ذاك الكتاب عن كثب، وتتفقد حروف مقولته كأنها سر يختفي وراءها ولم تدركه إلا بعد فوات الأوان.

كم من وقت يلزمها لكي تبعث من هذا المخاض المحير؟

فارتشفت كأس ماء ثم عادت إلى النوم، ليشرق الصباح على يوم جديد يجعلها تجدد أفكارها، و تنفض عن جسمها البقايا المحترقة من

ذلك القناع الذي سرق أغلى ما تملك، و تكمل ما تبقى من أيام تكوينها، وظبت ملفاتها ثم سلكت الشارع الذي اعتادت التجوال فيه يكتظ بالمارة كباقي الأيام، تمد نظراتها على كل ما يقع أمامها، و تختار لنفسها بعضا من المقتنيات الجميلة، إذ يصطدم بها شخصا كان غير منتبه، يقرأ الجريدة فاتحا أيّاها على مصرعيها، فلم يبد أي اعتذار ليواصل سيره اتجاه الساحة التي تتوسط المدينة، و يزيح الجريدة عن وجهه اذا به سائق سيارة الأجرة في حلته الجديدة بعيدا عن عمله، راح يراقبها من بعيد ويرسم خطة للاقتراب منها، ولكن لم يجد للأمر وسيلة إلا معاودة الاتصال بها مجددا.

لم تبال بهذا الشخص المتهور في مشيته ظنا منها أنه لم يتعمد ذلك، وكان كل مرة يتصل من رقم مجهول فتقطع الاتصال عمدا وغضبا، لأنه أزعجها ولم تدري لمن يكون هذا الرقم. تنحدر في ذاك الشارع اتجاه طريق المؤدي إلى المقر، وقد اشتدت النسمات البرد التي تأتي من أفق البحر الجميل متناسية رنين الهاتف، تخرج من حقيبتها آلة التصوير لتلتقط

بعض الصور للذكرى، وبعد قليل تدخل شقتها ثم تستلقي في تعب، كأنها كانت في حفلة أو مناسبة رأس العام أثناء ذلك بذأت تتمتم قائلة:

يا ترى لمن هذا الرقم الذي أكثر من الاتصال؟ هذا التصرف ليس لائق.

أصبح هاتفها لا يتوقف عن الرنين في أي مكان تضعه، ما بال الكل يريد التحدث معها أو تمضية بعضا من الوقت، ثم التفتت إليه فجأة وأخدت تحدق فيه وتنتظر الاتصال، فكلما اتصل تقطع عنه الاتصال وهكذا دواليك حتى توقف لمدة طويلة، حاولت فيها التخلص من التعب قبل أن يتمكن النعاس منها ويختطفها في غفلة.

كان مسؤول القناة هو المؤلف في حد ذاته، تستهويه العناوين الكبيرة التي تظهر على صفحات الجرائد حول مؤلفين آخرين، أثبتوا قدراتهم على تحقيق أهدافهم من الروايات، وذلك لحسن اختيارهم للشخصيات التي كتبوا حولها، كما اتخذ بعضهم أسماء غير حقيقية وألفوا تجاربهم قبل حدوثها.

مع نهايته من كتابة بعض الأسطر، اشتد الريح خارجا فأسرع نحو النافدة ليغلقها، فتشد انتباهه امرأة متوسطة الطول ذو معطف أسود وقبعة حمراء. وكأن الرواية على وشك الانتهاء، أسرع لنزول أدراج المنزل وأخد في تقفي أثرها، في حين رتب لسانه بعض الكلمات للأسطر الباقية منها، تمر ساعات وهو يختصر المسافة بينه وبينها من غير ارتباك، يكاد يلحق بها لتدخل منزلها دون أن تشعر بأي مراقبة لها، وأثناء تخيله النهاية المأساوية لروايته يبدو متيقنا كل اليقين أنه على وشك وضع نقطة النهاية أمام السطر الأخير، لينتهي حواره ويكون في العنوان العريض من جريدة رسمية.

يمر الأسبوع وكل مرة يحاول فيه عدم تضييع الفرصة الأخيرة، وقد أخذ وقتا طويلا لينجح فيها، لو ضاعت منه ما تحقق هدفه. فاستطاع بذكائه وحنكته أن يصبح ضيفا على هذه المرأة، التي سافرت ابنتها إلى مقر تكوين الصحفيين مند شهرا كاملا، ويتردد عليها بين الحين والأخر ليعرض عليها بعضا من مؤلفاته، متنكرا في ثياب توحي بأنه من أحد أشهر المؤلفين بقبعته الرمادية والشعر الأسود المجعد المحيط بها، مستغلا

هدوء المكان مستعملا لغة مقنعة، وعبارات يجملها كلما حل عليها ليصل إلى مبتغاه الذي يسكن بداخله لصياغة آخر نفس لهذه المرأة المسكينة.

وفي ليلة من الليالي اتجه كعادته وهو يحتضن مهمته التي سيتولاها، بحيث لا توجد إمكانية التراجع نحو منزل الضحية، ليدق الجرس وكأنها ملحمة دبرت بعيدا عن كل الأعين التي ستكشف أمره، فتحت المرأة الباب ولم تبد أي دهشة حين رأته لأنها تتذكره جيدا، يقدم لها اعتذارا صريحا فيه نوعا من الجرأة في مقابلتها قائلا:

مرحبا كيف حالك.

ترد علية في آخر نظرة إليه:

بخير تفضل.

ثم استدارت إلى الداخل ليتبعها ببطيء وهو يصغي إلى أفكاره، التي ستكون مرتبة في السطر الأخير لروايته بعنوان " فضائح الليل"، ليهم عليها بضربة على الرأس أسقطتها أرضا وجلس يراقب موتها البطيء، ثم أجهز

عليها بطعنة في صدرها وانصرف كأن شيئا لم يحدث. يخرج مبتسما ببرودة القلب يردد قائلا:

حين تموت الضحية في فضيحة من فضائح الليل.

تقترب الضحية من الهاتف الموجود على الأرض بالقرب من الباب، وفي صراع مع اللحظات الأخيرة من حياتها تحاول الاتصال بابنتها، يرن الهاتف في يدها والدم يجري من تحتها صانعا بركة اشتد احمرارها، كانت موسيقى هادئة حزينة فتستيقظ ابنتها من النعاس.

ألو من المتصل يا ترى؟

تباغته في لهفة، فمند وصولها قرابة شهر كاملا لم يتصل بها أحد، تجد رقم هاتف والدتها لترد بسرعة والدموع تنهمر على خديها:

لقد اشتقت إليك يا أمي، كيف حالك؟

الأم بصوت خافت يكاد يسقط الهاتف من يدها:

عودي يا ابنتي.

وفجأة ينقطع الاتصال، أعادت المحاولة عدة مرات ولكن ليس من مجيب، كانت ستخبرها عن أحوال البلد وتلك الساحة العمومية. استلقت مرة أخرى ولكن غادرها النعاس في غيظ منها ولم تغمض لعيونها جفون، فراحت تعاود الاتصال مرات ثم تجد رقم الهاتف المجهول ربما أحدا ما يريدها، أخدت تتمعن فيه مجيئا ورواحا بين المطبخ والغرفة ترددت قليلا لكنها لم تتراجع، اتخذت القرار في لمح البصر بعيدا عن أعين المارة الذين يتطاولون في بلدها.

جاري الاتصال الآن...

تهمس قليلا ثم تتكلم:

عفوا على الإزعاج إني أخطأت، تنتظر ردة فعله فلم يقطع الاتصال ثم يضحك قائلا:

ألم تعرفيني؟ أنا سائق سيارة الأجرة الذي نقلك من المطار إلى المقر، لقد وقع كل شيء ولم أدرك أكنت مخطئا أو على صواب وأنا مستعد لتصحيح الخطأ.

تبدد كل شيء كان يعتريها، وهي واقفة بالقرب من النافدة وتسمع إلى أقواله كأنها في حضرة المتهم، الذي لا يهمه المجازفة من دون رخصة تحميه، إنها مبالغة في اختيار الطريق وردت عليه:

لقد انقطع الاتصال مع والدتي وأنا قلقة لأجلها.

فلم يكن منه إلا أن يقترح عليها من دون اعتدار قائلا:

أهدئي، أيمكنك العودة؟ سأنقلك إلى المطار.

غريب في المدينة يجاريها العزف على نغم واحد في غيات الحضور، تحاول الاحتفاظ بلحنها عبر الهاتف وتنتقي عبارات دون ارتباك تستوقفه قائلة:

يمكنني العودة إذا اقتنع مدير المقر ومنحني الموافقة لكن دعني أفكر قليلا.

التوتر يزداد لمعرفة قرار المدير حول موضوع العودة، فاختلط بالحنين وانتشر بين ثنايا جفونها يقاسمها قساوة النعاس. وفي الصباح الباكر

التحقت بمكتبه علها تكون أول الملتحقين به، لتجده يوظب أغراض مكتبه فأشار عليها بالدخول، قصت عليه ليلة البارحة وما حدث لها بكلام مؤثر، وحاولت بكل قوة أن تفوز بقراره الإيجابي ولم يكن سوى توقيع الموافقة وانصرفت، في هذه الأثناء تخرج من المقر يفاجئها انتظار سائق سيارة الأجرة الذي لم يبرح مكانه قط، ولم يكن شخص آخر إنه واضح أمامها لقد ظهر مستعدا لتقديم الخدمات لها، لأنه كان على معرفة بهذا العالم وأحوال السفر، ثم أسرع إلى وضع الحقيبة داخل السيارة وأمرها بالصعود.

ما باله ينحني انحناء محترم، فلم ينحن لها أي شخص من قبل ولاحظ من كلامها ما يوحي بالاحترام أيضا، سيكون ذلك جيد حين يدعوها بدوره مرة أخرى بلا تردد إلى طاولة شراب أثناء اتجاههم نحو المطار. يتحدث في قرارة نفسه لبعض الوقت والصمت يحوم حولهم، ثم يستدير إليها في ابتسامة قائلا:

أيمكنني دعوتك على بعض المشروب؟

ظلت صامتة تراقبه بعينيها ثم قالت:

توقف هنا هذه المقهى جميلة.

فعرف حينها أن صمتها لم يكن إلا رضاها على دعوته.

ركن سيارته جانبا ودخلا المقهى، استقبلهما النادل باحترام وجهز طاولتهم ثم سألهم:

ماذا تفضلا؟

أجابت دون أن ترفع قائمة المشروبات:

أريد عصير الليمون فقط.

تعجب السائق من طلبها ورد عليها:

عصير الليمون؟ كالعادة.

لم تكن هناك كلمات لتشرح هذا، كل ما تريده أن يسرع بها إلى المطار حتى لا تفوتها رحلة اليوم. أنهيا جلستهما التي كانت أول جلسة لها

منذ اختفاءه عن الأنظار، وفي نفس اللحظة تذكرت تلك المقولة " التعاسة جميلة حين تليها سعادة تدوم " وشكرته على الدعوة وباشرا السير نحو المطار.

تصعد على متن الطائرة وقد ارتاحت قليلا، ولكن يستمر الجدال بداخلها فتحاول تهدئة الموقف، لعل هذا الرجل رأى لمعان في عينيها أو تخيلت أن الوقت عصيب من دونه، تمسح على جبهتها مبتعدة عنه وكل شيء ساكن سكون الموت، تحسب أن موقفها كان أنانيا بعض الشيء، وأنها وفرت على نفسها عواطف جميلة.

يرن الهاتف برسالة نصية:

تخرج الهاتف من حقيبتها لتقرأ ما وصلها:

رحلة سعيدة أنا في انتظارك.

تسند ظهرها وتتنحى جانبا وتفسح المجال للشخصيات الباقية تارة، وللتفكير العميق في أمها الذي دفعها للعودة تارة أخرى، ويستمر السائق

في مراقبة الطائرة وهي ترتفع أكثر فأكثر، فالأمر بدا واضحا كما لو أنه ترك قلبه معها في تلك الكلمات التي تبادلاها ثم يتابع طريقه نحو العمل.

تمر أكثر من أربع ساعات منذ سفرها، لتصل إلى أرض الوطن في ظهيرة يوم مشمس، تستمر في الاقتراب من منزلها وفي لحظة استغراب شديدة توقفت قليلا، وتسمرت في مكانها وعيناها مشدودتان إلى المكان حيث منزلها، الذي أحيط بشريط أحمر وعدد كبير من سيارات الشرطة والإسعاف، كما وصل المهتمون بهذا الحدث من صحفيين، كان معهم رئيس القناة الجديدة لتجثو على ركبتيها صارخة:

أمي، أمي ابتعدوا عن الطريق.

لم تكن تتوقع أن كل ما لديها يختفي فجأة، فراحت تكشف الستار عن وجهها وتندب حظها، الذي سينغص عيشها ثم قالت بصوت تملأ الدموع شفتيها:

من فعل بك هذا؟ سامحني لم أعتن بك جيدا.

أخرجت كل ما بداخلها من عبارات توحي بمظاهر الانتقام لمقتل والدتها، وأنها لن تهدأ مادام المجرم خارج أسوار السجن يتنفس بعيدا بكل حرية.

هي الآن تطلب حريته، وتحاول فتح محكمة رافضة أقوال كل الشهود وحتى ما تم نقله على وسائل الإعلام، بل كل ما سمعته لن تصدقه ليتبادر إلى ذهنها أسئلة كثيرة ثم تردد قائلة:

ماذا فعلت أمي لتلقى مثل هذا المصير؟

يقترب منها مسؤول القناة ليجري معها حوارا صحفيا عن الموضوع، في بداية الأمر رفضت الإدلاء، وتجاهلته لأنها وسط بركان خامد تريده أن ينفجر ليشفي غليلها، لكن في النهاية وبعد إلحاحه وتهدئتها أفصحت عما يدور في ذهنها، وعن مشاعرها التي تغيرت بتغير الأوضاع ولم تتفوه بعدها بكلمة أخرى. بعد مدة قصيرة استطاعت أن تتمالك نفسها، ولكن بداخلها تفوح رائحة الانتقام بكل عناوينها واختلاف وقائعها، ها هي تجيب على بعض أسئلة المحقق:

أين كنت يوم مقتل والدتك؟

تغمرها الدموع ولم تستطع التحكم في مشاعرها لترد قائلة:

كنت في مقر تكوين الصحفيين.

لم تتوقف يدا المحقق عن النقر على لوحة المفاتيح حتى نهاية الاستجواب، ثم انصرفت في انتظار نتائج التحقيق والقبض على المجرم، وفي نفس الأمسية التي قتلت فيها والدتها، كانت تجوب بتفكيرها متكئة على الأريكة في غرفة الاستقبال مع مشاهدة بعض القنوات، يستوقفها ما نقل من تحقيق حول الجريمة وحيثياتها.

نعم كم هو صعب حين تفقد أغلى ما لديك في لحظة لم تتوقعها.

تبكي أمها بحرقة وهي تشاهد الأخبار التي نقلت على قنوات مختلفة عندما تغيرها لمدة ساعات، وكيف كان المهتمون من صحفيين ومراسلين يتناقلونها بكل جدية واستمرار، كما تظهر أرقاما أسفل الشاشة لمن يهمه الأمر أو عرف شيئا عن وقائع الجريمة فليتصل، وذاك الشريط الأحمر الذي يحمل خبر عاجل ساكنا لا يتحرك، كأنه حزين على مثل هذه

الأخبار. تجمع قواها في رحلة بحث عن وظيفة قارة تؤمن لها عيشا كريما عينها على الهاتف، وعين أخرى على تلك الأرقام محاولة منها الاتصال المباشر بالقناة.

تتجمد للحظات وهي مستلقية على الأريكة، ثم تنطوي في زاوية من شقتها، تسجل الرقم الظاهر في الأسفل وقد اسودت مقلتيها من السهاد، الذي لازمها منذ تلقيها الفاجعة وصنعت فوضى أخرى بحياتها، حين تجردت من الإنسانية اتجاه والدتها.

تفكر تفكيرا يعني لها الكثير حتى تعبت أعصابها، وسقطت أنفاسها كأوراق الشجر، ونحل جسمها بعيدا عن عصير الليمون الذي كتب لها تعاسة أخرى قد تناستها في فاجعة أمها، تسجل الرقم وتتمعن فيه للحظات قبل محاولة الاتصال، وكأن شيئا يخبرها أن مفتاح الجريمة بيدها. وبعدها يفاجئها اتصال السائق أسرعت بالرد قائله وهي تجهش بالبكاء:

لم يبق لي شيء في هذه الحياة.

في حيرة من أمره يرد متسائلا:

ما الأمر؟ هوني عليك قليلا وأخبريني ماذا تقصدين؟

يعض أصابع ندمه على كل ما بدر منه، وأنه مستعد للسفر من أجلها، باشرا الحديث وكان في كل جملة يقولها يحاول جعلها أكثر جمالا ورونقا، حتى تقبل منه اعتذاراته وترضخ لأمنياته. تقاطعه منهكة التفكير:

متى ستسافر؟

يتكلم معها بوضوح واقتناع:

غدا صباحا سأكون هناك.

لابد أنك تمزح فعندما تأتي سأخبرك بكل شيء.

تبتعد عن الأخبار قليلا، وتفكيرها يملأه القلق حيال قدومه إلى أرض الوطن وكيف ستقابله، لتبدو أنها غير قادرة على التحمل أكثر، وليت كل شيء يتغير في الحين أعادت الاتصال بمسؤول القناة:

مرحبا أنا ابنة الضحية.

يرد في عجالة من أمره:

كيف أخدمك؟ حسنا إن أمكنك الحضور إلى مكتبي.

تتنهد ورأسها مطرق:

شكرا سيدي سأكون في الموعد.

عند خروجها من المنزل، ترميها أفكارها في قلب الحدث مجددا، وتفسح المجال لبداية حلقة جديدة حول وقائع الجريمة، تصل إلى موقف الحافلات لتختصر الوقت، وتكون عند موعدها المحدد، لم تجد مكانا تجلس فيه فمكثت واقفة سويعات إلى أن وصلت إلى مقر القناة، تتجه مباشرة نحو قاعة الاستقبال لتستفسر:

أريد مقابلة المسؤول شخصيا.

يأخذ عون الاستقبال قائمة المواعيد، ويحدق فيها باحثا عن اسمها ليتأكد من وجوده، يبتسم ثم يقول لها:

اصعدي إلى الطابق الأخير على اليسار.

في دقائق معدودة تصل إلى وجهتها أخيرا وتقف وجها لوجه معه فيأمرها بالجلوس:

تفضلي، أتشربي شيئا؟

كان كل شيء واضحا أمامها قبل أن ترد عليه:

لا شكرا، جئتك من أجل وظيفة........

يقاطعها دون أن تكمل الموضوع:

أنا موافق، يمكنك البدء غدا.

وخلال حديثها معه، توزعت نظراتها في أرجاء مكتبه، لتشد نظرها روايات مختلفة انتظمت على شكل رفوف بجانبه، فشكت في بادئ الأمر انه أحد المؤلفين، ثم تراجعت عن توقعاتها وانصرفت في هدوء حتى لا تثير شكوكا من حولها.

راحت تنتظر السائق لحظة وصوله إلى المطار، إنه موعد هبوط الطائرة. قلبها ينبض بشدة، ليس هناك مراوغة أو تصميم جميل بعضه

أو سيئ كله لاستقباله، ليس هناك ورود مستعدة لوضعها على ابتساماته، فكل شيء سيستمر من جديد إذا أرادت ذلك. ستنمو الأشواك وتحاصرها بلغة تعرفها من قبل تحفظها رغما عنها.

استدارت عندما رأت الركاب يخرجون عبر الممر نحو مرافقيهم أو نحو سيارات الأجرة، فرفعت يدها ملوحة عاليا فيلتقيان بعد مرور شهر كامل، انطلقت به نحو الساحة العمومية، التي ألفت الجلوس هناك واشتاقت إليها. هذا المكان الذي كتب لها بداية تعاسة عنوانها مقولة المؤلف التي استلهمتها. ثم يجلس في المكان الذي طالما انتظرت أحد ما الجلوس بالقرب منها، لكن انتهت التذاكر ولم يبق سوى كتابها المفضل يروي آلامها بعيدة عن أمها.

يقترب منهم النادل الذي مازال بهيئته وتواضعه، يسألهم ماذا يريدون أن يشربوا، لترد قائلة:

عصير الليمون كعادتي.

تحمر وجنتا السائق لما يسمعه ويذكره بما بدر منه ثم يقول:

شكرا على الخدمة لا أحتاج شيئا.

يجرى الحديث بينهما كما يجري الماء في الواد، وينفطر قلبه لما سمعه عن أحداث الجريمة، ثم يهون عليها مقدما منديلا لتمسح عن عينيها الدموع، لكثرة المتاعب التي واجهتها وإنه لتحد آخر لما هو قادم، فالقضية تثير قلقها كثيرا، لكن لا تعلم أي الطريق تسلك ثم تكمل تحضيراتها للالتحاق بمقر القناة.

لم تنقض الساعات الأولى من عملها، لتبقى في المكتب بصدد تحضير حوار ستبثه مباشرة عل القناة مع ضيفة شرف. هو أول عمل تليفزيوني لها مند التحاقها بعد مقتل أمها، كيف تقنع نفسها أنها على أهبة الاستعداد لأن هناك المزيد من البرامج، إذا أخدت عملها بمحمل الجد فلم تكن قد نامت كثيرا بالأمس بعد تنظيمها للفوضى، التي دارت بيها وبين السائق. ها هي تتجمل لتخفي ملامح الانكسار وتبدو في أناقة تروق للمشاهد، تكثر من المساحيق دو اللونين الوردي والأحمر، وتسريحة شعر قد غيرت لونه إلى الأصفر الذهبي، وتضع رموشا سوداء طويلة تشعر كأنها عارضة أزياء. انتظرت بعض الدقائق ويداها ترتعشان حاملة ذلك

الحوار، هذا سيأخرها قليلا عن الموعد، ولو حدث تأخير سيغضب مسؤول القناة. اعترفت قائلة:

هذا محتمل نعم.

لكن لا تستطيع إبعاد نفسها عن التفكير، وأخيرا تمالكتها في جرأة غير طبيعية ليبدأ التصوير، كان إنسان آخر بداخلها وانسل منها، ليصفق الجميع لها هذا ما كانت تبحث عنه، لتدب الحياة فيها من جديد ثم يتقدم منها المسؤول:

أحسنت كنت أتوقع هذا منك، لقد أبنت على شخصية لها مستقبل واعد.

لم يخطر ببالها أبدا أن يقول مثل هذا الكلام:

شكرا على المساعدة، أنا في الخدمة.

وينصرف الجميع في صورة من التفاؤل بما فيه مسؤول القناة، يتجه مباشرة إلى الساحة العمومية ليرتشف فنجان قهوة وربما لديه رواية أخرى يؤلفها.

يخرج السائق في جولة عبر شوارع المدينة التي ترامت على أطرافها، تبدو ضيقة أحيانا وهي بعيدة يعمها الهدوء، وحين يقترب منها يجد منازلها قديمة تآكلت جدرانها لشدة الرطوبة، يقرر استئجار شقة بذاك الشارع الضيق لبعض الشهور من صاحبه، الذي لا يزور الوطن إلا في المناسبات فقط، ناهيك عن عمله الذي لا يسمح له بالسفر أكثر، تقدم بطلب الاستئجار وحددا المبلغ، ثم اتفقا في النهاية على عقد محدد المدة ينتهي عند حلول العام الجديد، اتصل بأحد معارفه ليعينه على عمل فاضطر إلى تغيير الوظيفة، طالما موجود في بلد غير بلده إلى حين ينقضي العام المتفق عليه.

استسلم للأمر ففي كل صباح يرى نفس الأشخاص منكبة على وجوهها، فبعضهم يقرأون الجرائد وبعضهم الآخر رواية أو كتابا.

الكل يقرأ لا تسمع منهم لغوا أو حديثا ما استحسن العمل كبائع للجرائد. يحمل حزمة منها وصوته يتعالى:

أخبار جديدة، أخبار جديدة، هيا سيدي، سيدتي.

يجوب كل منطقة صغيرة إلى أن يصل إلى الساحة العمومية مستريحا، وقد نال منه التعب ثم يتعالى صوته مرة أخرى وهو جالس:

أخبار جديدة، أخبار جديدة.

يرفع رأسه لينظر في أمر من يشتري منه الجرائد، فإذا بمسؤول القناة واقفا أمامه بزيه الكلاسيكي الأسود وربطة عنق زادته تأنقا، وتلك القبعة الرمادية بهيئته لا تتغير. يطلب جريدة وممسكا بيده الأخرى ثمنها الزهيد، والفضول يقتله حول كل وجه غريب في المدينة ليبادره بالسؤال:

كم ثمن الجريدة؟

يحدق فيه ظنا منه أنه لا يعرف ثمنها أو مستهزئا به ليرد عليه:

ما يمكنك منحه سيدي، فضلك جميل.

يبدو أنه يستطيع إقناع المشتري، فلم يكن من المسؤول إلا أخد الجريدة مانحا ثمنا وزيادة على ذلك بعض البقشيش، وبعد المغيب يتجه بائع الجرائد مباشرة نحو شقته، حاملا بعض المشتريات والصمت يداعبه، وعند دخوله ألقى بنفسه على السرير لقد كان الأمر متعبا، ثم غطى وجهه بيده كأي شخص يفكر حتى غاص في النعاس ونسي التلفاز مشتعلا، فجأة يستيقظ على صوت نباح الكلاب تحت شرفة مقابلة لشقته، كلاب متشردة تتعارك فيما بينها، بينما أسرع لخفض صوت التلفاز ليشاهدها في أخر دقائق من البث تشكر كل المتابعين والمشاهدين لها، ليطلق ابتسامة عريضة غابت عنه لأشهر، ثم يرفع هاتفه ليبعث لها رسالة تشجيع لكنه لم يفعل، أراد أن يسمع صوتها فهاتفها:

أحسنت أنت مذهلة، ولكني لم أشاهد الحصة كاملة.

هزت كتفيها غير مبالية:

لا عليك، كيف أحوالك مع الإقامة؟

يرد عليها مطمئنا:

لقد استئجرت شقة لمدة عام كامل هنا في الشارع الأخير من المدينة، لكن الرطوبة فيه عالية.

بدا أنها استعادت التركيز على أفكارها، وأدركت أيضا أنها تتحدث إلى غريب، تتبادل معه العبارات ثم قالت:

أنا متعبة، أراك لاحقا.

هي تعترف بأنها لا تملك تعليلا لقطع الاتصال، ثم تتظاهر بعدم وجود عواطف اتجاهه.

يشرق الصباح بنسماته الباردة ورطوبته العالية، يحمل جرائده في حزم متثاقلا بها متجها إلى حيث يبدأ عمله، ينما كان خارجا من الباب الرئيسي نحو الشارع، يصادفه ذلك الشخص في ملابسه الأنيقة كالعادة، لم يبال لأمره فحاول أن يستوقفه بجريدة جديدة وخبر جديد، بدأ ينظم حديثه:

صباح الخير سيدي هلا اشتريت الجريدة؟

مسؤول القناة: ألم تعرفني؟

عذرا، لم أفهم قصدك سيدي هل أزعجتك بشيء؟

هز برأسه وعض على شفتيه ماسحا على وجهه بيده، ثم بدأ يسرد عليه سيرته:

كنت مند زمن ليس ببعيد أحد أكبر المؤلفين ولم يذكر له اسمه واسم بعض الروايات، إلى أن حصلت على عمل كمسؤول القناة الجديدة و....ثم يذكر اسمها "الجديدة" ربما يتذكرها عند مشاهدته للقنوات. ظهر البائع غير مهتم لما يقوله والجرائد المربوطة جيدا يخاف أن تسقط منه، تتناوب بين يديه اللتين لم تعتادا على العمل الشاق، يقاطعه المسؤول قائلا:

لم احمل معي بعضا من رواياتي اليوم فكان بإمكانك رؤية إحداها.

يتعجب والصمت يزداد في قرارة نفسه:

ما بال هذا السيد مغرور بنفسه لم أعتد على مثل هؤلاء الأشخاص هذا يبدو في هيئته.

ثم يشير إلى جرائده في تريث منه:

أيوجد شيء لم يعجبك في عملي يا سيد.......لا يعرف اسمه لكي يناديه به.

يرد عليه:

ليس بوسعي أن أقول أكثر من هذا، إذا أردت البحث عن وظيفة أحسن هذه بطاقتي يمكنك الاتصال في أي وقت تريده.

يتظاهر البائع بقبولها لكن ما بداخله من كبرياء يرفض ذلك، ثم يرميها في جيبه الداخلي للمعطف متناسيا أمره، كان بإمكانه مجاراته في الحديث أو تفاديه عند الباب الرئيسي، فمثل هؤلاء الأشخاص لا يستهويهم العمل البسيط، إنما يحبون الربح السريع. وقبل أن يصلا إلى مفترق الطرق، يقابله مقهى صغير لصديق له يباشر عمله كل صباح، واضعا طاولته القديمة صنعت من الخشب وبعض الكراسي في واجهة

الباب، تراه منكبا في تحضير أنواع من الشاي في أباريق مختلفة الأحجام، ونادرة الصنع على موقد قديم بعض الشيء، يدعوه لاحتساء بعضا منه على حسابه الخاص فيرفض قائلا:

شكرا لك على الدعوة لقد داهمني الوقت.

يتركه عند المقهى، ويتجه مسرعا بتلك الجرائد إلى الساحة العمومية أين تزداد حركة، المارة وتتعالى أصوات الباعة كالمقطوعات الموسيقية، فيختار مكانا له من الزاوية على رصيف قريب من موقف السيارات، ليطلق من حنجرته صوتا يجدب به من يريد خبرا جديدا.

أخبار جديدة، أخبار جديدة.

ينادي السيد جمال صاحب المقهى المشهورة في طرف المدينة، حيث كان والده يشتغل بها على مدار السنة، صديق طفولته باسم الشهرة التي ألفها منه وداوم عليها كلما رآه " الروائي" هنا تظهر الأسماء بعد الأحداث التي وقت مؤخرا راحت ضحيتها امرأة. لم يكن محمود يظهر اسمه الحقيقي في القناة إلا بعد تولي مسؤوليتها، فكان يكتفي باسم الشهرة

الذي داع صيته بين أصدقاءه والعامة الذين يعرفونه، ليَكتب عنه مقالا صحفيا عن كيفية وصوله إليها مدرجا اسمه الكامل محمود عبد الغني.

يحضر جمال سينية الشاي الأحمر في دردشات متواصلة لخفة دمه، إلى جانب بعض الحلويات التقليدية التي يصنعها جيرانه تعرض بعضها للبيع، ثم يجتمع مع محمود ويتبادلان أطراف الحديث عن طفولة مرت في لمح البصر، وعن ظروفهم الصعبة التي تقاسماها في البحث عن عمل. بقي جمال معتمدا على والديه إلى أن توفيا، لتصبح المقهى ملكا له تؤمن قوت يومه، فلم يكمل دراسته بسبب رسوبه المتكرر خلال كل سنة. أما محمود فقد اهتم بهوايته في التأليف إلى أن أصبح مسؤول القناة الجديدة.

يسكب القليل من الشاي بحركة جميلة ودقيقة تعلمها من خبرته الطويلة، يرتشفاه في جو من الضحك تارة، والصمت تارة أخرى. يتفاءلان خيرا للأيام المقبلة، وبلا تردد يتفوه جمال ببعض الكلمات التي أزعجت محمود حول موضوع الذي يشغل العامة:

يريدون كشف هوية القاتل، فلا يستحسن على المرء أن يفكر في تلك القضية.

يجمع محمود معطفه على نفسه بسرعة حتى انسكب الشاي على الأرض، وتناثرت شظايا الكأس يتقدم منه صديقة ماسكا أياه وضاغطا على كتفيه لتهدئته:

أراك انزعجت من كلامي هل أنت بخير؟

لم يرد عليه وكأنه كشف أمره، ثم ينصرف في غيظ كبير نحو عمله. يهمهم جمال قائلا:

ما بال هذا الرجل تغير لونه واشتد غيظه؟! ربما يخبئ شيئا عني فلم أره هكذا منذ مدة.

ينكب على وجهه ينظف ما خلّفه محمود من فوضى، في حين أدرك هذا الأخير أن أمره منكشف لا محالة، وإن الشارع إذا احتقن مطلبه سيخرج في مسيرة للمطالبة بتحقيق العدالة، ولا مفر بعد ذلك إلا

الاستسلام، يدخل مقر القناة وقد تغيرت مشيته، غير مبال بما يحيط به ليقف العمال في دهشة من أمرهم:

ما خطب هذا الرجل؟!

لم يفهم أحدا ماذا يحدث لأنهم لم يعتادوا على رؤيته على هذا الحال من قبل، كان يتجنب كل سوء معاملة تؤدي سمعته، يجلس على كرسيه ورأسه إلى الخلف يفرك يديه، ثم يشتت نظره فيها ويقلبها في قلق وقد انهارت أعصابه، وفي جرأة يسحب خريطة صغيرة أمامه وضعت بالقرب من الخزانة، كادت أن تتمزق من شدة الضغط عليها، ثم يرسم أسهما على مناطق مختلفة من العالم، ربما يخطط للهرب أو الاختباء إلى غاية هدوء الأوضاع، ويكتب كلمات غير مفهومة ثم يراجعها مرات. إنها تبدو عناوين كبيرة سطرت لعله يرغب في اتصال بأحد معارفه خارج البلاد. يتهجم وجهه ويضيف قائلا:

إذا كان تصرفي هذا يشكل خطرا على حياتي لن أبقى هنا.

يشعر بنبضات قلبه تزداد كلما تذكر نهايته، فمثله لا يكن أهلا لأن يعيش فتوقف قليلا وقد احمرت وجنتاه بشيء من الشعور بالذنب ثم قال:

يبدو أنني أضع نفسي موضع الاتهام!

يمكن أن يكون هذا الكلام واقعيا، اقترب من المرآة محاولا أن يفهم ما يجب القيام به، لتفادي الشك وأن يتأكد من تحركاته خوفا من أن يكون مستهدفا من طرف أي شخص، عمت الفوضى داخله فراح يفترض انه لو ألقي عليه القبض، ما سيكون مصيره. صمت للحظة ثم أكمل يقول:

ما على إلا أخذ إجازة طويلة المدى وأسافر، لآني بحاجة لتهدئة نفسي.

صار وجه الرجل أكثر تعبيرا عن الخوف:

لا أكاد أستطيع التحرك بسهولة، إني أتخيل أن الكل يتهمونني وقد تغيرت نظراتهم إلي، فلن يصدقني أحد أو يعفو عني ثم يشرد ذهنه مرة أخرى.

ولشدة مجاراته لمشاعره لم يغادر مكتبه أو يستقبل أي زائر، وقام بتحويل كل الاتصالات إلى مساعدته بالمكتب الآخر، فبقي ينتظر إلى الساعات المتأخرة إلى أن غادر الكل وهدأ المكان. يتسلل كالقاتل المأجور متجها نحو سيارته يلتفت يمينا وشمالا، وأثناء سيره يتوقف على مقربة من المقهى محدقا فيها وقد غادر جمال مع نهاية وقت عمله، يخرج من جيبه سيجارة رقيقة يشعلها برفق، فصار المكان كله نشوة بين دخانها ثم تليها الثانية والثالثة حتى نفدت منه في بضع دقائق. كانت تحرك فيه هيجان داخلي يطفو على السطح، وبين الحين والآخر ينفث زفيرا طويلا يجمع بين شعوره بالدنب واللامبالاة بمصيره المجهول الذي ينتظره، يواصل طريقه إلى حيث شقته أين سينضم أكثر ما يجوب خلجات نفسه.

عمار بائع الجرائد يحاول كل مرة جدب المشتري نحو الخبر الجديد، تراه متعبا لشدة تحركاته في أرجاء الساحة العمومية، كما جف ريقه وبح صوته، فلم تبق لديه سوى بعض الجرائد. يعود إلى زاويته متفقدا ما جناه في هذا اليوم الجميل، فرغم التعب الذي طاله تذكر أن يهاتف تلك

الحسناء التي لم يلتق بها مند الصباح فقد كان مشغولا، تراه يستعد في عجل يتمتم مبتسما:

يا ترى أين تقطن في هذه المدينة؟

هذه المرة يشعر أنها ستكون مختلفة، فارتأى أن يختصر المسافة ويقنعها بدعوة على مأدبة عشاء حتى يخبرها بما يعتريه من مشاعر، ويفصح لها عن قناعته بأن يكون رفيقا لها، يرن الهاتف مطولا في حقيبتها الصغيرة، لم تسمعه لأن المنبه كان صامتا، لا ترغب في مكالمة أحد أو الجلوس معه بعد ساعات عملها الشاق، ها هي تسلك ذاك الشارع المكتظ بالمارة كأنها تبحث عن القائل في وجوههم، وتضع العلامات على من تشتبه فيه، تارة تصطدم بهم وتارة تتجنبهم وتسير في حيرة من أمرها تقلب الأفكار.

يئس من إعادة المحاولات لعشرين مرة، ويهم بالمغادرة حاملا ما تبقى له من جرائد إذ بها تقف أمامه، وترمي كل الاحتمالات الواردة بعيدا عن موقفها، ثم نظرت إليه من خلال نظاراتها وقد بدت هادئة جدا:

عفوا لابد أنك مغادر؟

استطاع ببراعته أن يقنعها في آخر لحظة:

اتصلت بك مند قليل لدعوتك على عشاء ما رأيك؟

ترد عليه بابتسامة وراءها ألف علامة استفهام:

ماذا؟ ظننتك مستعجلا ولكن سأقبل دعوتك.

بلا شك ستفهم أن وجوده بقربها ضروري للغاية، ولكن صعب بعض الشيء إذا ما استعملته وسيلة لكشف الحقيقة. يجلسان حول الطاولة المعتادة أين افتقدت لشخصياتها وانتهت العروض القديمة، فلم يكن منه إلا أن يصبح أحد أقرب الشخصيات إليها، بالرغم من كل ما بدر منه في الأشهر الماضية، ينسحب في هدوء تام نحو البستان الذي يتجمل بأجمل الورود ليقطف بل يسرق وردة، متنكرا في لباس عاشق مهتم لأمرها، ها هو يتقدم نحوها بحركة كالطاووس وينحني في جرأة منه يطلبها لبداية صفحة جديدة متفائلا:

تفضلي هذه الوردة أيمكننا البدء من جديد؟

احمرت خداها في خجل، وتمالكتها مشاعر عديدة اختلطت بين القسوة والانتقام واللهفة إلى الحب، لم ترغب في حدوث هذا وأن الوضع سيتغير طالما يعاملها بهذه الطريقة ترد قائلة:

شكرا لم أكن أنتظرها منك.

تمسكها بيدها واضعة إياها بين صفحتي كتابها المفضل، وكانت الصدفة أن تلامس المقولة التي ألهمتها في هذا المكان، ويجتمعا معا ليصنعا وجها آخرا لها وهي تحدق في كلتيهما غارقة في الأعماق، وتعود الأسطوانة من جديد لتمر أمامها الأحداث كبدايتها هذه، فتشعر بملامسة خفيفة كالنسمة العابرة فوق يدها، لتعود أدراجها من خلف الحطام، وتسحبها مباشرة ليسقط الكتاب ومعه تلك الوردة. ينحني لالتقاطهما مرددا:

عذرا، رغباتي كانت تندفع مني اندفاعا.

بالمناسبة ما هو اسمك؟ فمند الصباح وأنا أرغب في لقاءك يا.......

ترفع النظارات عن عينيها وتبدأ في تغيير الصفحات ثم قالت:

إنك غير مهتم لأمري يا عمار لماذا تراوغ؟

يندهش ليس لكلامها، ولكن لسماع اسمه فكيف عرفته:

عمار من قال لك هذا؟

كفانا مزاحا ودعنا نتناول العشاء أنا جائعة جدا ثم تضيف:

هل احتفظت بمعلوماتي الشخصية عندما التقينا في المطار لأول مرة؟

هز رأسه، بالتأكيد ثم راح يسأل نفسه:

هل من الممكن أن أكون قد نسيت كل المعلومات؟

آه، كنت أمازحك فقط ثم تابع بأسلوب ودي وهادئ:

سيلين اسمك جميل، أردت أن أغير الأجواء قليلا فحاجتنا للراحة كبيرة.

وقبل أن ينهي كلامه أضاف قائلا لقد نسيت شيئا لم أخبرك به:

أتعلمين أن مسؤول القناة هو......

تقاطعه:

هو ماذا؟

طبعا، لقد قابلته صباحا عند مغادرتي للعمل، وقبل أن يشتري مني جريدة تابع يسرد على قصته، إنه أحد.... كيف يسمى الذي يكتب الروايات؟ تذكرت إنه أحد المؤلفين.

تتعجب لما سمعته:

هل أفصح لك عن اسم إحدى رواياته.

يراجع ما دار بينهما ثم يكمل:

لم يقل شيئا إلا أنه أراد مني أن أحتسي معه فنجان شاي عند صديقه فرفضت بحجة أن الوقت داهمني.

تسبب كلامه في المزيد من الشك حول محمود، والحيرة تبلغ غايتها لكن لا أحد يستطيع أن يقدم حلا واحدا لهذه الجريمة، ولا ملاحظات

قيمة تساعدها على إقناع المحكمة بذلك. وقبل أن ينهيا جلستهما استسمحها عذرا قائلا:

في إي شارع تسكنين؟

تعض أضافر أصابعها الواحد تلوى الأخر وترد:

في الشارع الخامس مقبل باعة الأحدية الذين يتوزعون على حافة الطريق.

قد ضاع في ثغرات وجهها وبين رموش عينيها، لينساق إلى قلبها مكبَل المشاعر دون ضجيج. في العلن يُسحب نحوها من غير انتباه، قد غيرت مجرى عواطفه وصار لها عنوان يحتاج للتصحيح كيفما أرادت، تشتهيه حينما تريده فلا يطيق التنفس من دونها كأنها أوكسجين الحياة، ربما هي مبالغة ولكن حان الوقت لأن ترد الصاع صاعين، توسّع المساحة لتراقب نواياه وتوصد الأبواب من كل جهة، كما لو أن حصارا يؤرقه خوفا من الانهزام، تحشد له جرأتها وإصرارها.

وفي اليوم الموالي وعلى غير العادة لم يلتحق محمود بمكتبه، ربما لم ينهض مبكرا أو أنه أمضى ليلته في التفكير أو لم يلتقط أنفاسه بعد، هذا ما يسمح للشكوك بالدوران حوله، يصل الجميع وتسبقهم سيلين حاملة محفظتها التي اشترتها من متجر قرب الساحة العمومية، تساعدها على حمل أوراقها وحواراتها، لقد أكملت الشهر الخامس منذ بداية عملها، تهتم بتغطية إعلامية خارج مقر القناة، هذا ما جاء على لسان مساعدة الرئيس في خبر رسمي أعلنت عنه هذا الصباح ليجعلها بعيدة عنه لبعض الوقت.

لابد أنه بدأ يخطط لطمس الجريمة وإسكات الجميع من حوله، ولم يدر بأن عمار قد استخدمته كطعم لكشف الحقيقة، وأنه مستعد للتضحية من أجلها فلن تصدر أي اعتدار اتجاهه لأن المظاهر مهمة، وخداعة في نفس الوقت من أجل البلوغ الهدف، لقد تغيرت ملامحها خلف تلك النظارات التي غيرت لونها، وحديثها الهادئ والواضح هذا ما تقوم به أثناء تغطيتها في الميادين.

بعد الظهيرة تجلس في مكتبها تحضر للخروج إلى تغطية أخرى، فلا يقتصر الأمر على الارتجال فقط، وإنما تهيئة نفسها جيدا حتى لا تتعثر في الكلام وتخرج عن الموضوع. إنها تتفهم الوضع بطبيعة الحال وتجمع خبرة من خلال ممارستها المتكررة، لكن هذه المرة ينطوي على استعدادها وتألقها الملفت للأنظار، كان يهمها غيابه عن العمل هذا ما يزيد احتمال أن تكون توقعاتها صحيحة، وتصبح تكهناتها حول القضية ليس خيطا رفيعا وإنما الهدف بعينه، تقترب من مساعدته في المكتب المجاور له وتعرض عليها بعض التساؤلات:

ما به محمود......؟ لا تعرف حتى اسمه الكامل. ألم يتصل بك؟ ألم يخبرك عن سبب غيابه؟

هي ليست استفسارات عفوية أو عبثية أو عادية، وإنما هي صنارة ترمى حول مساعدته لجذب ما يدور في قاع البحر من خفايا ربما تساعدها على فهم الأحداث ثم ردت عليها:

لا، لا لم يتصل بعد ولم يخبر أحدا عن سبب غيابه، وإن رقم هاتفه مغلق منذ الصباح.

التفتت نحو مكتبها تغلقه لتغادر المقر نحو موقع الحدث، فلديها الكثير لتقوم به حتى تواصل التألق وتكسب قلوب المتتبعين لها، وبعد مغادرتها ببضع الدقائق يرن الهاتف بمكتب المساعدة:

مرحبا من معي؟

يبدو أن المتصل هو محمود:

أعصابي مجهدة قليلا كيف الحال مع العمل؟

ترد عليه في هدوء:

الكل يسأل عنك.

محمود بصوت منخفض:

ربما سأغيب أياما فلا ترددي على أي استفسار، وأجلي قائمة العملاء إلى حين عودتي. سأتصل بك لاحقا وأطلعك على كل جديد. اتفقنا؟

ويقطع الاتصال.

يتمالكها الشك في أمر هذا الرجل، لتنتصب واقفة بثبات في مكانها تفكر رسميا فيما أقدم عليه، وأن الأمور لم تبد واضحة لها جيدا، في حين أرادت أن تتولى بنفسها بعض الأمور نيابة عن عاملة النظافة، التي تقدم خدماتها مرتين في اليوم، انطلقت نحو قاعة الاستراحة الخاصة بها بعد مغادرتها للمقر ونهاية عملها، وحملت بعض معدات التنظيف لتتجه مباشرة نحو مكتبه، فالحقيقة أنها لا تعرف شيئا فهو لم يكن يتحدث عن نفسه كثيرا أو عن حياته، عند دخولها ترى ما لم تراه عينيها من قبل، روايات مرتبة في رف متناسقة الوضعيات ثم أدلت برأيها:

لا أعلم، خيل لي أنه ربما يكون مؤلفا كبيرا فبعض الناس لديهم هوايات أخرى.

اقتربت منها وأخدت تقرأ عناوينها المختلفة، وتحدق في أغلفتها المختارة بدقة الواحدة تلوى الأخرى، بدأت تقتنع أنه مؤلف حين سحبت رواية كانت في الزاوية الأخيرة من الرف وتسقط الأخرى على الأرض، ليظهر لها اسمه الكامل مكتوب بحروف جميلة من تأليف: محمود عبد الغني.

غادرت مكتبه و هي لا تكاد تصدق حاملة روايتين: عنوان الأولى- فضائح الليل-والثانية – خلف التعاسة سعادة-لم تكن تتظاهر بريبة أو الشك أمام العمال الآخرين، لتبقي على الوضع هادئ حتى اللحظة الأخيرة، وحولت انتباهها إلى عملها كأن شيئا لم يحدث، بين لحظة وأخرى تتردد نظراتها عليهما قائلة:

ما كان يجب أن أحشر نفسي في أغراضه ربما لا يحب هذا.

وجهت لنفسها كلاما بشرود وهي تكمل طباعة بعض الأوراق:

لا أعرف ماذا دهاني سأعيدهم إلى مكانهم عندما أنهي عملي.

لم تكن متأكدة من كلامها حين قررت إعادتها إلى مكانها، فبعد نهاية الدوام في الساعات الأخيرة غادرت المقر، وبقيت تلك الروايات على مكتبها يلفها الصمت، فلا تستطع البوح بما تحمله ولا تغيير محتواها.

كل صباح يخرج جمال تلك الطاولة والكراسي الخشبية أمام المقهى، ويحدق في وجوه المارة عله يرى صديقه محمود عن قرب، ليدعوه إلى الجلوس بعض الدقائق كالعادة، لقد غاب عنه عدة أيام وغاب معه أُنسه، فلم يسمع عنه أي خبر حتى الاتصالات التي يجريها من حين إلى حين لا أحد يرد عليها، بدأ يلوم نفسه بل ويقسو عليها في جدال متواصل طيلة اليوم:

هذا خطأ مني لأنني أتكلم بعفوية وأصر على الثرثرة أمام الناس، لكن ماذا قلت؟ مجرد إعادة أقوال حول الجريمة. وهل هذه الأقوال تعنيه؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟

كانت نبرته توحي بالندم والأسى، إلى أن طل عليه عمار بعد ساعات من العمل، يحمل ما بقي معه من جرائد يضعها جانبا قرب الباب، ويمد

يده إلى الكرسي ليسحبه، فيستدير إليه جمال ظنا منه أنه صديقه فقال بهدوء يمتزج بنوع من الفضول:

ألست ذاك الشخص الذي رأيته مع محمود يومها حين دعاك إلى احتساء بعض الشاي ورفضت؟

هز عمار برأسه في شغف ويقول:

نعم أنا، هل يمكنني الحصول على كأس شاي ساخن؟

يرد في حركة خفيفة:

بالتأكيد تفضل بالجلوس.

ثم يسرع في إرضاءه بطريقته الخاصة دليل على تفانيه في العمل، ولكن قبل أن ينتهي من تحضير الشاي، يقف وهو يحمل في جعبته الكثير من الأسئلة قائلا:

لا تشغل بالك بما سأقوله، وأرجو أن تجيبني على بعض الأسئلة لو تفضلت، إذا كان هذا لا يزعجك

منذ متى تعرف محمود؟ ألم يخبرك بشيء غريب أو دارت بينكم مشاحنة هذا الصباح؟

يكتفي بهز رأسه:

للأسف، لا أعرفه جيدا أنا مستأجر جديد في نفس الشارع الذي يسكن فيه وأذكر أني طلبت منه شراء جريدة و.........

يقاطعه جمال قائلا:

بعد جلوسنا أردت أن أغير القليل من حوارنا، فغصت اسرد آخر الأحداث التي وقعت في ذاك الشارع الذي يكثر فيه باعة الأحدية، راحت ضحيتها امرأة سافرت ابنتها وبقيت وحدها، لم أنتبه لثرثرتي فانزعج مني وغادر في غيظ، لقد اختفى عن الأنظار ولا أدري ماذا حدث له، فمنذ ذلك اليوم وأنا قلق عليه إنه صديق طفولتي.

يجيبه وهو يستعد للمغادرة بعدما احتسى نصف الكأس:

ربما سافر لأيام فقط ثم يعود هون عليك سيكون كل شيء بخير.

يغادر السيد عمار المقهى بعدما تبادلا عبارات السلوك المهذب في لباقة، تركت في نفسية جمال شيء من الاحترام جعله يهدأ قليلا، وفي طريقه بدأ يهمهم مع نفسه:

وما علاقة هذا الرجل بأحداث الجريمة؟

تكثر الأسئلة وتتناثر كالأوراق تليها إجابات متشردة لم يقتنع بها، لأن فحواها كان غير مفهوم، فهو غريب عن هذا البلد ولم تبقى إلا شهور على انتهاء عقد إيجاره، سيضطر إلى تمديده شهورا أخرى. يبطئ في مشيته ضاغطا على قبضته يحاول تذكر ملامح هذا الرجل، الذي التقاه مرة واحدة فقط فلم يبال باسمه ولم يحتك به أكثر يجعله منفتحا على تفكيره، يقف للحظة ثم يخرج القلم ليسجل اسمه الكامل، حتى لا يضيع من ذاكرته فإذا بالبطاقة التي رماها بجيبه تلامسه أطراف أصابعه، يخرجها ليقرأ ما كتب عليها فذاك اليوم لم يشأ أن يقبلها منه ليتأكد متسائلا مرة أخرى:

ما علاقة محمود عبد الغني بأحداث الجريمة؟

يذكر اسمه بالكامل كما جاء في البطاقة.

ها قد بدا مهتما أكثر بهذه القضية، يطل عبر نافدته مباشرة على الشارع يراقبه كلما سنحت له الفرصة، وأصبح يتأخر قليلا عن عمله متعمدا، أشعلت فيه رغبة كبيرة للنظر في القضية، وبالتأكيد سيخبرها بكل ما يعرف وكيف تحصل الأمور، لم يتخيل كيف ستكون النهاية في ذلك اليوم، وصمم أخيرا على الطريقة التي سيواجه بها هذا القاتل وكأنه جزء منها.

منح لنفسه فرصة لا تعوض ومن دون تأخر قام بالاتصال بها هاتفيا فلم يستطع ترك الانتظار لليوم الموالي، ولم يختار الوقت المناسب علها مشغولة بإحدى تغطياتها المباشرة في عين المكان، لكنها الطريقة الوحيدة التي يشترك فيها غريب معها في نفس القضية.

ينتظر أن تجيب ثم يسمع صوتها فيقول:

إن كان لابد من كشف الحقائق فهلا أطلعتني عن مكانك؟

تنسحب من مكانها المتواجدة فيه من أجل إنهاء مقابلتها مع أحد الأشخاص وترد في دهشة:

أنا على استعداد تام لأسمعك، ما الأمر؟

سيكون الأمر صعبا نوعا ما إن وافقت. وتباشر كلامها:

حسنا، نلتقي في المكان المعتاد بعد المغيب بقليل.

حينئذ يسرع إلى إضفاء حسه في التأنق ليرتدي زيه المألوف، كما كان في أول مواعدة لها، لم يكن مهتما بانفعالاته بل استحوذ عليه الأعجاب بنفسه وقرر _في قرارة نفسه_ أن يقف معها إلى آخر نقطة، ويتمنى أن يكون له الفضل في فك ملابسات الجريمة، بعدما انتهى من تسريح شعره انطلق نحو الساحة العمومية، وهو المكان المعتاد لكي يلتقي بها ولما وصل حدق في المكان ثم قال:

في البداية أعتذر عن إزعاجك، لا أدري ما دهاني! لكن كنت بحاجة لكي أراك.

بدا واضحا لها من نظراته التي تخبئ أشياء جديدة لا تعرفها، ولهفته لاطلاعها على ما بجعبته واضعا علاقته جانبا، من المؤكد أنه لا يوجد شك في إخلاصه هذا ما أرادته أن يكون عليه.

ما بجعبتك؟ إني متشوقة لسماعك.

سكت يفكر من أين يبدأ كأنه في زوبعة من المستجدات، ثم انتقلت نظراته اتجاه كتابها المفضل وطلب أياه في هدوء:

ممكن الكتاب لو سمحت؟

يسحب الكتاب باتجاهه ويفتحه على أول صفحة، فيشد نظره اسمه الكامل ثم يقول:

محمود عبد الغني، إنه هو مسؤول القناة صاحب هذا الكتاب، إنه المؤلف نفسه.

ربما لا تكون الوحيدة التي لديها الدافع الأكبر لمعرفة قاتل أمها:

ماذا، وكيف عرفت؟

لقد سلمني بطاقته الشخصية عندما التقيته أول مرة، إنها الحقيقة أنظري هذه هي البطاقة اسمه الكامل محمود عبد الغني.

ساد صمت ثقيل لبرهة، واشتدت نبضات قلبها ثم أثنت عليه بصوت لطيف:

شكرا على مساعدتك، لكن ليس هناك ما يربطه بمقتل أمي، لا أدري أنا مشوشة، يجب أن نبحث في الموضوع من زاوية مختلفة تماما، في مكتبة مجموعة من الروايات ربما تكون إحداها باسمه، غدا سأتفقد الأمر ولكن كيف يمكن الدخول إلى مكتبه. في هذه الأيام الكل منشغل بغيابه الطويل من دون أن يعلم أحد سبب الغياب.

يبالغ في الانتظار علها ترفع عن عينيها النظارات، وتهديه أجمل تحية قلبية على مسافة قريبة تفصله بين الانطلاق بعيدا أو الخضوع، المسافة التي تحتويه بل تضمه إليها منذ أول لقاء، صارت تهجوه سرا على البساط

الأحمر الذي تنازلت عنه جاهدة تريد الخروج إلى الشاطئ، بعد التعب الذي مزق فيها كل ظلع وسلب منها لذه النوم، تقاومه في التجديف بلغة اضطرت إلى تغيير مصطلحاتها من جديد، وستمضي بقوة على أوراق ملكيتها بقلب قد امتلأ حزنا وفاض اقتناعا، أفرغ ما في جعبته وما اكتفت أطفأت الأضواء لتستيقظ على صراع جديد.

هذه المرة تمتهن كل فنونها القديمة، فاستعانت بذكائها وأعدت العدة رافضة الاعتزال بعد شهور من ذاك اليوم المشؤوم، تحمل رخصة الاقتراب من مكتب مساعدة مسؤول القناة الذي تعددت أسماءه بين المؤلف ومحمود عبد الغني، لم تنتظر مطولا وصول العمال بل التحقت في مقدمتهم متجهة نحو مكتبها، تشق بنظراتها الزجاج الشفاف العلوي للمكاتب نحو ما يُرى خلفه.

تنتصب قامتها معلنة بدء التجوال المبرر بين محتويات المكاتب إلى أن وصلت إلى مكتب المساعدة، تتراقص عيناها يمينا ويسار خوفا من أي شخص يصل بعدها فيكشف أمرها، تعلمت التحري من ميدانها الثري بالتحقيقات والحوارات، تسارعت دقات قلبها وهي تجثُم في مكانها، وتبطئ

حركة عيناها حتى توقفت على كتابها المفضل يعانق رواية أخرى بالقرب من الحاسوب والدهشة لا تسعها قائلة:

كيف وصلت هذه الروايات إلى هنا؟

ثم تتظاهر أنها تواجه أفكارا وتتهجم عليها، فوصول العمال لا يتعدى عشر دقائق من بداية العمل، لتصل المساعدة ترسم ابتسامات عريضة لا تخلو من المرح واقتربت من سيلين:

كيف حالك؟

بخير الحمد لله،

تهم باستبعاد سؤالها عن كيفية وصول الروايات إليها، تتردد ثم تسألها:

رأيت بعض الروايات في مكتبك، لمن يا ترى؟

لا، لن أقول ذلك قبل أن أتأكد بأنك لن تخبري أحدا.

من الواضح أن المساعدة تريد أن تكذب عليها، لتتخلص منها في الحين وتنقد نفسها من مشكلة كبيرة وضعتها نفسها فيها، ثم تهمهم بصوت لا تكاد تسمعه:

لقد أوقعت نفسي في مشكلة، كيف سأرجعهم إلى مكتبه؟

تخاطبها بأسلوب المتمرس الذي يخاطب جمهورا من الناس:

ذاك الكتاب هو المفضل لدي.

ثم أخرجته من حقيبة يدها وقالت:

أنظري إنه هو، ولكن أستفسر عن الكتاب الآخر هل يمكنني الاطلاع عليه؟

علقت المساعدة في شبكة سيلين مرة أخرى، كأنه الصيد الأخير الذي سيكشف كل شيء لينظف مسرح الجريمة، ويوضح لها العلاقة بين المؤلف والجريمة ثم تلعثم لسانها وأجابت:

إنها للمسؤول السيد محمود عبد الغني اسمه مكتوب عليها، لم أعرف من قبل إذا كان مؤلفا كبيرا.

لم تتوقع أن تكون الإجابة هكذا، فلم تشأ أن تتحرك من مكانها إلا بعد أن تبلغ غايتها، والظاهر أنها متمسكة أكثر بتلك الرواية فراحت تسأل نفسها:

كيف يمكنني قراءة ما كتب فيها؟ وأي علاقة تربطها بمقتل أمي؟

تجاوزت أسئلتها وبدأت تعرض على المساعدة بعض الدقائق لقراءتها فقط وعندها أعادت طلبها مرة أخرى:

إني أحب مؤلفاته، وأود الاطلاع عليها مباشرة بمكتبي.

لم تتمكن المساعدة من الهروب، فقد وقعت في شباكها وأدركت فورا أنه لا مناص من العدول قائلة:

حسنا إليك ما أردت وأسرعي قليلا.

تتفقد سيلين واجهة الكتاب في قلق، وتكرر عنوانه الكبير الذي خط بعبارات غامضة _ فضائح الليل_ عدة مرات فلم تفهم منه شيئا، استمرت في قلب الصفحات ببطء شديد ماجت فيها عيناها بين الأسطر، تتوقف تارة لفهم بعض العبارات الواردة فيه، وتارة تسجلها في الورقة لتشرحها فيما بعد، أرجعت المساعدة الرواية الأولى ثم أقبلت على الثانية في سباق مع الزمن، لتعيدها إلى مكانها بعد المهلة التي اتفقا عليها. كان الخوف يعتريها من معاتبة المسؤول لها، لو شك أنها تتطاول على أغراضه الشخصية قائلة بلطف شديد:

اعذريني، لا أستطيع انتظارك أكثر ربما عاد في هذه الأثناء.

ما كان عليها إلا أن تعترف، وتقتنع أنه لا توجد إجابات جريئة واضحة على تساؤلاتها حول مرتكب الجريمة، وأنها لا تشك في أي أحد قريب منها، وهذا اقتناع غريب بعدما كانت تسعى دائما وراء إظهار الحقيقة، وفجأة وبلا مقدمات انهارت واخفت وجهها بين ذراعيها الممدودتين على المكتب، ثم أجهشت بالبكاء المر وكان قلبها منفطر على وفاة أغلى ما لديها، أمها

التي كانت بجوارها دائما إلى أن أتى ذاك اليوم المشؤوم، وخطفها منها من دون سابق إندار.

والحقيقة أنها تتموج بين تعاسة وألم ألمّا بحالها، وكانت تلك الأسماء تجول في خاطرها ابتداء من سائق سيارة الأجرة إلى مسؤول القناة، فلم تستطع أن تثبت شيئا رغم محاولتها، كما أدركت الشرطة أيضا أن القاتل محترف وأغلقت القضية، ثم التفتت إلى المساعدة لتخبرها أنها ستغادر البلاد في الأيام المقبلة لتحضّر لها الاستقالة وقالت:

يجب أن نعرف يا سيدتي، حتى لو تبين في النهاية من نظن أنه على علاقة بكل ما يحدث لم يكن إلا وهما، من الأفضل أن نثبت فعليا وأن نحدد جيدا على من يقع الذنب.

ترد عليها المساعدة:

لا تزعجي نفسك، لا تزعجي نفسك!

فقط بعض الكلمات الصادقة هذا ما نريده.

اتكأت إلى الخلف ونظرت نحو هاتفها ممتلئة غيظا وامتعاضا لما يحدث لها، كأنها لازالت تنتحب بذاخها لأنها لم تنجح، وشعرت بشرخ يغوص بالقرب من قلبها أطلقه الباقون على قيد الحياة، تستقبله في شرود عميق تسترجع ما ضاع منها في علاقة استثنائية بين مقولة، ألفها صاحبها وبين فاجعة أطبقت عليها الدنيا فلم تدرك الحقيقة من الخيال.

تنهض وتتابع عملها غير أبهة لهذه المقاطعة والشرود المتواصل، ثم تسرع إلى المكان الحدث إين تقدم تغطيتها، فقد تمكنت في الآونة الأخيرة من زيادة شعبيتها وسط الصحفيين والمتابعين لها، وداع صيتها رغم كل المحن التي مرت بها لتقاوم أكثر، بعد نهاية عملها يقترب منها أحد المعجبين بها في سعادة كبيرة، وكأنه لم يصدق نفسه وهو يتحدث إليها:

من فضلك سيدتي ممكن توقيع؟

توقفت وبدا كل شيء على ما يرام:

حسنا.

أمسكت بالمذكرة الصغيرة ووقعت عليها.

هذا البرنامج الذي اشتهرت به زادها تألقا لينتهي البث بموسيقى جميلة، فتغادر مكان الحدث متجهة نحو مقر القناة، لتستقبلها المساعدة بتهاني على مجهوداته الجبارة وعلى تخطيها كل المشاكل، فلم تنس ما مرت به خلال هذا العام.

تراجع بعض الأوراق التي كتبتها مند الصباح بمكتبها في عجل من أمرها، تبدو كمقدمات لأحد البرامج المقترحة عليها، ثم تسجل بعض الملاحظات على الكمبيوتر في صفحتها الخاصة، وترد على بعض الانتقادات التي تطالها من حين إلى آخر، من دون أن تهمل الإجابة على أسئلة البعض التي تخص مسارها المهني، في هذه الأثناء ترفع سماعة هاتفها متصلة بالمساعدة قائلة:

هلا توافيني بجدول الأعمال ليوم الغد؟

ترد عليها المساعدة:

دقيقة ويصبح الجدول جاهز.

ولم تنس أن تذكرها حول موضوع طلب الاستقالة:

متى ستمضي الاستقالة؟

المساعدة:

لا أدرى عندما يعود المسؤول ستكون جاهزة.

توظب محفظتها في هدوء رغم إحساسها بآلام في الرأس من شدة التفكير، وبدأت عينها بالدبول لتتجه مباشرة نحو شقتها والليل يسدل ظلامه، لتتلون المدينة بأنوار الطرقات وأضواء السيارات.

يقرر السيد عمار الفوز بهذه المغامرة، ولا يدري أنه قد فاز بها بطريقته الخاصة، وفي منتصف طريقه عائدا نحو شقته بعد أن باع كل جرائده، تحوم بمخيلته بعض الشكوك حول السيد محمود عبد الغني، ومحاولة الاتصال بصاحب الشقة لإنهاء عقد الإيجار لكي يعود إلى وطنه، تاركا سيلين بكل بساطة كأنه يريد التخلص منها، ومن قضيتها التي طالت مدتها قرابة عام كامل.

ينفض يديه من لعبة تآمر عليها في استهتار، ويخرج من مضمار اشتدت التواءاته، ثم يرابط في الطاولة التي ألف الجلوس بالقرب منها في

الساحة العمومية، يتابع عقارب الساعة في انتظار وصولها، فلم يشأ أن يزعجها باتصالاته تكاد تنقضي ساعات عملها، تمر تلك الدقائق ثم تليها ساعتين من وقتها المحدد، مل من الانتظار ولم يبادر بفعل أي شيء فهو لا يحب كسر المفاجآت، طال الانتظار كثيرا فينهض بكل خفة ويغادر مكانه، ليقرر في اليوم الموالي المغادرة نحو دياره، وينهي كل شيء في لمح البصر لقد كان يتألق في لعب الأدوار في كل بداية ونهاية.

مع بزوغ الفجر، يستيقظ مثقلا بليلة أمضاها في توضيب أمتعته، وفرض قراره الأخير إما السفر أو مواصلة فهم أحداث القضية، وفي هذه الأثناء تتعالى أصوات تدريجيا بشقة جاره المقابلة له، لينتابه فضول ويسيطر عليه في لحظة من الذهول والغرابة في نفس الوقت، يقترب رويدا رويدا من نافدته ليشاهد أضواء مشتعلة وشخصين في تبادل المشاحنات، حيث تتغير وضعياتهم بين الوقوف والجلوس لبضع ساعات.

يقترب ذاك الشخص لغلق النافدة، إذ به المسؤول السيد محمود عبد الغني ليظهر فجأة بعدما اختفى شهورا، ولم يتأكد بعد من الشخص الثاني الذي طال جلوسه مسندا ظهره لأريكة رمادية، ربما يكون صديقه

جمال صاحب المقهى الصغير في جدال متواصل يهدأ قليلا ثم تتعالى أصواتهم مرة أخرى.

مكث يراقب الباب الرئيسي إلى حين خروجهم، ليتخلص من افتراضات ضاعت بذهنه حول ما رأى، ثم يستفسر:

عم يتجادلان؟ ربما يمكنني فهم الموضوع من صاحب المقهى.

بقي في أخد وجدب بينه وبين نفسه حول قرار مغادرة البلد، إلا أن دوره لم ينتهي بعد، ثم يتراجع عنه ليعدل الموضوع ويأخذ النقاط بعين الاعتبار، ربما يكون جمال شخصيا على دراية بما يحدث، ولن يكون بريء لأنه أخفى حلا سريعا للقضية، بعد ذلك يتأنق كعادته ويسلك الشارع مباشرة نحو المقهى، لم يكن مضطرا لأن يعجّل مسرعا فهو في استراحة جعلها للتجوال. إن الوضع في المقهى هادئ يبعث على الراحة كل صباح ومهيأ للحديث بروية يجعل الكل يناقش قضاياه، سادت لحظة صمت بينما جمال يحضر بعضا من الشاي، ثم نظر نحو عمار ولاحظ أنه يريد

الحديث، فمن المستحيل أنه لا يريد ذلك رغم كل المظاهر، يسحب كرسيه لكي يجلس فيقاطعه جمال:

صباح الخير؟

يرد عليه دون أن يرفع رأسه:

صباح الخير.

ثم يحدق فيه بتمعن ويسأله:

ما لي أراك محبطا؟ ماذا حدث؟

يرفع رأسه مبتسما:

لا، لا شيء يذكر أنت الذي تبدو قلقا كأنك تخفي وراءك موضوع.

يتنهد واقفا، ثم يصرخ في جرأة وقد وتغيرت نبرة صوته:

ما أكثر الأحداث في الآونة الأخيرة تخيفنا فلا ترحمنا، نبتعد عنها فتصيب الأقرب منا، لم أكن أتخيل أنه يوما ما سيصبح مهوسا بهوايته

التي جردها من خيالها لتصبح واقعية أكثر، لقد أتم العام أشهره ونحن نتألم لوفاة امرأة بريئة، فتظهر الحقيقة فجأة في شخصية محمود عبد الغني صديقي الذي كنت أبادله أدق خبر في حياتي.

ثم تفطن مع نفسه وراح يتمتم:

آه، إنها زلة لسان ماذا ستفعل بي؟ لم يخطر ببالي ما قلته فلا أحد يعلم إلا نحن الاثنين.

لم يتدارك جمال نفسه وهو يفضح ما زج في قلبه، وما اضطربت له نفسه في الليلة الماضية، ونسي في تهوره غرابة هذا الرجل الذي يجلس بالقرب منه. يقصد عمار كأنه يريد أن يطفئ غيضه وينثر رماده بعيدا عنه.

بعد الفراغ العميق الذي تركه مسؤول القناة محمود عبد الغني أثناء غيابه، وبصم على وجوه عماله دهشة وريبة في قلوبهم، اضطر كل واحد أن يصوغ ويتعمق في أسباب غيابه بسؤال أو أكثر، وكانت كلها تتشابه في محتواها وتختلف في طريقة طرحها، طرح جعلهم يأملون

عودته أو قراءة مقال أو ما شابه ذلك عن اختفاءه كما يحلو للبعض قول هذا، وهناك من داوم على طرحها أو نقل ما يقال هنا وهناك، ففي كل صباح يتجاذبون أطراف الموضوع ودام الأمر لعدة أيام، حيث وُجد لأدوات الاستفهام حيزا واسعا (كيف؟، لماذا؟، متى؟) من التعبير والطرح، غير منتظر أن يكتسح هدوء مؤقت في صباح جميل، فلم تعد الأذان تتنصت ولا الأفواه تتجادل، يفتح باب المدخل الرئيسي للقناة ويدخل هذا الشخص-محمود عبد الغني-الذي احتل العنوان الكبير بين عماله، فيقف الكل تحية له مستغربين في ملامحه التي اكتستها ألوان جذابة تسر الناظرين، والهدوء الممزوج بالثغر الباسم الذي لم يفارقه إلى أن دخل مكتبه.

يجلس بعيدا عن الأعين، يحدق في أشياء مكتبه كما لو أنه عامل جديد في منصبه، ثم يثبت نظره مطولا في رواياته، ويدرك أنه عاد إليها من باب آخر، لينظف ما خلفه من تساؤلات مبعثرة على كل لسان، يبدأ في قراءة أوراق وضعت أمامه إلى أن سمع طرقا على الباب:

تفضل.

إنها مساعدته ترحب به حاملة معها ملفات جديدة، تنتظر أن يمضي عليها من بينها طلب الاستقالة التي سلمتها سيلين، لأنها قررت الرحيل في الأيام المقبلة تقدمها له مرحبة به:

مرحبا بك سيدي لقد طال غيابك، تفضل بعض الملفات لتراجعها وتمضي عليها.

يبتسم ثم يرد عليها:

الحمد لله لقد غيرت الأجواء قليلا بعيدا عن العمل، ويشير بيده إلى تلك الورقة التي بيدها:

ما هذه الورقة؟ ما المكتوب بها؟

ترفعها أمام عينيها ثم تسلمها له ببطء على مكتبه، يسحبها اتجاهه ويبدأ في قراءتها، يجمع شعره بيده في بهجة مندهشا لما يقرأه قائلا:

لم كل هذا الاستعجال؟ إننا بحاجة إليها.

كأنه يحتاج إليها فعلا، فكم تمنى أن تختفي عن الأنظار بلا عودة لكي يهدأ باله، ويتخلص من تفكيره نحو القضية، يمد يده إلى السيالة وبدا مندهشا وهو يحاول إخفاء سعادته لرحيلها، خائفا من فضحه قائلا مرة أخرى:

أنا موافق سأوقعها ولكن متى سترحل؟

تجيبه المساعدة:

سترحل في الأيام المقبلة.

يمضي محمود عبد الغني الاستقالة في شغف كبير، وتعمد الضغط على القلم في نشوته المعتادة التي يجاري بها كل حدث جديد، ظهر مرتاحا حين رفع الورقة أمام عينيه ليحدق فيها مرات ومرات، كأنها الخلاص الذي انتظره لشهور ثم يضعها على مكتبه متكئا إلى الخلف، ويشعل سيجارة ليبدد بها خوفه ويثلج صدره.

تصل سيلين في مقدمة العمال كعادتها، وبعد لحظات يصل الكل بالتوالي فتعم التحيات، ثم تستوقفها المساعدة بما تحمله من أخبار في

يومها الأخير من العمل بالقناة، فلم تشأ أن تكثر عليها ثم ينصرف الجميع إلى مكتبه، يرفع المسؤول سماعة الهاتف لينادي على مساعدته من أجل أخذ الملفات والأوراق الأخرى فتسرع إليه بانضباط، لم يقاوم أو يتردد طالبا منها أخذ الاستقالة والتحضير لعقد اجتماع طارئ، تعود المساعدة إلى مكتبها وتنادي بدورها على سيلين لتقدم لها الاستقالة ممضية من طرفه، فتقف في دهشة لما تسمعه:

لقد أمضاها محمود عبد الغني وهو يأمرنا بعقد اجتماع طارئ.

ترد عليها وقد تسمرت رجلاها في الأرض:

ماذا؟ متى عاد؟ عقد اجتماع طارئ؟

لم تكن مجرد أخبار تسمعها، بل هو ذاك اليوم الأسود يعود في تسلسل زمني مرتبط بروايتها المفضلة هو مؤلفها، حيث لم تفهم من مقولته ما تخفيه من معان كثيرة. تريد مقابلته بقوة، ثم أضافت قائلة:

هل يمكنني مقابلته الآن؟

هناك ما يثير اهتمامها وتريد له تفسيرا، أثناء ذلك يخرج من مكتبه متجها إلى قاعة الاجتماعات لتصادفه وجها لوجه. يصعب القول إن هذه الصدفة تتأرجح بين حقائق واضحة وأخرى غامضة فتبادره بالقول:

صباح الخير سيدي كيف حالك؟

يبتسم ابتسامة حانية في وجهها ويقول:

قبل أن تستقيلي فكرت في الأمر أليس كذلك؟

ويباشر دعوتهم إلى الاجتماع:

دعونا نجتمع الآن فالوقت يداهمنا.

لم يفسح لها المجال للكلام، فكان من الاحتمال أن تقاطعه لتدخل في صلب الموضوع، فتقتنع أكثر أن الرحيل لا مفر منه ثم تحضر الاجتماع الذي دام ساعتين، وفي النهاية تودع العمال وتغادر.

يحرك محمود عبد الغني ربطة عنقه، كأنه كان مخنوقا واعتدل في جلسته نافخا صدره وعابثا بشاربيه، ثم يشرب كأس ماء كامل مطمئنا

نفسه لتعود المياه إلى مجاريها، ويصبح طليقا حرا من معاناته وخوفه اليومي وينسحب في هدوء إلى عمله، كانت أفكاره تتجدد، إذ يبدو مستعدا استعداد جيدا لإحدى رواياته التي ستخلصه من بقايا الرواية القديمة.

تمضي ساعات بعد أن غادر عمار المقهى واضعا يديه بجيبه، متبخترا في مشيته يبحث في أعماق هذه الشوارع عن أثار تستهويه، ويقلب عناوين كتب ومجلات بالمكتبات وعند الباعة المتجولين، يغوص بشيء من انفتاحه على ملتقى الثقافات المختلفة ليزيده سحرا وانبهارا من هذا وذاك، في حين تزداد الحركة كلما اقترب من الساحة العمومية، فاختار المكان الذي طالما يذكره بلقائها من حين إلى آخر، كان يشعر في خلجات نفسه بشيء من البعد عن سيلين فقد مرت ثلاثة أيام من دون أن يكلمها أو تكلمه، ليتبادر إلى ذهنيه الاتصال بها من غير تردد وهو يحاور نفسه:

هل تحسنت أحوالها؟ من أين سأبدأ حين أخبرها بالحقيقة؟ هل ستصدقني حينها؟

يقاطع شروده شاب في مقتبل العمر، جميل في هيئته يطلب منه ولاعة لتدخين سيجارة، كانت علبة السجائر من النوع الرفيع لم يبق منها سوى واحدة، يهم بإخراجها ويرمي العلبة على مقربة من البستان قائلا في تكبر من دون طلب الاستئذان:

ولاعة سجائر.

يستغرب عمار من هذا الشاب ويرد عليه في ابتسامة استوحاها من ابتسامات سيلين قائلا:

عفوا، أنا لا أدخن.

ينصرف الشاب بغرور ليبحث من جديد، عله يجد من يشبهه ويشعل السيجارة، ثم عاد عمار بشروده وعيناه على تلك العلبة الحمراء المرمية، يتنهد ثم يقترب منها لفعل شيء جميل يحملها ويلقيها في سلة المهملات، كان عليه أن يتصل بها، فراح يكشف عن رصيده هل يكفيه لبضعة دقائق، نعم يكفيه لكي يتحدث إليها لكن موضوع الحقيقة لا يتطلب

بضع دقائق فقط، وإنما يحتاج إلى إقناعها قناعة مطلقة، ثم يبحث عن رقمها في هاتفه ها هو يتصل:

مرحبا كيف حالك؟

لقد اغتنمت اتصاله في هذا الوقت لتخبره:

لقد كنت على وشك الخروج، أنا قررت الرحيل من دون رجعة بعد ان قدمت استقالتي.

لاحظ من كلامها أنها لم تفهم شيئا بعد وردّ في تأن:

هل هذا ما تعنيه؟ الاستسلام؟، لم اصدق ذلك.

ثم يتابع كلامه:

آه، لقد أجهضت خطتي فماذا سيحدث؟ لو قلنا ان الجريمة كانت ستكتشف هذا المساء.

لا ترغب في التمثيل مرة أخرى، وأنها فقدت شجاعتها في مناقشة الموضوع، وبالتأكيد كان بإمكانها الإنصات إليه لكن في الواقع رأيها صعب

المراس، فلا تشعر أنها سترضخ له، بل حريصة كل الحرص على المغادرة ولن تبالغ في الرد على استفساراته وتوجيهاته، فيُقطع الاتصال في وجهه ليلاحظ في النهاية أنه أخطأ في اختيار قراره بمواصلة التحري، ومن أجلها لم يعد إلى بلده، ظل صامتا والغضب يأكله بصورة قاسية لأنه لا سبيل لإنكار ما قام به، أو إخفاء حقيقة أخرى يعترف بها بين نفسه، فلا يملك خيارا آخر إلا أن يعود أدراجه، ويواصل عمله المعتاد كسائق سيارة أجرة.

فكرت سيلين بعمق ثم قالت:

لا أنا متأكدة انه لا يوجد حل ثان، ربما إن ابتعدت قليلا ستتغير الأوضاع، وتعترف بأنها كانت حماسية أكثر من اللزوم من أجل مرتكب الجريمة، لتغادر مباشرة إلى شقتها، وقد حسمت الرد على الموضوع دون أن تعبث بقرارها. تجمع أغراضها دون أن تنسى صورة أمها، وتمد خطواتها نحو الشارع المقابل حاملة في يدها حقيبتين صغيرتين ثم توقف سيارة أجرة لكي تختصر المسافة إلى المطار حتى لا تفوتها الرحلة.

الرحيل إلى أين؟ فالجواب في هذه الحالة قد يكون من أساسياتها، ويتعلق بمسألة بداية حياة جديدة، تظن أنها نجحت إن لم تكن مخطئة، ربما هي مقدمات كمقدمة سفينة تمخر بشموخ عباب البحر الهائج، مقدمات لبداية مجهولة تشغل بالها وترسم على ملامحها الاستعداد لها، ثم تستعيد السيطرة على أفكارها لتأخذ مقعدها في منتصف الطائرة بجانب النافدة.

تنطلق الطائرة من المطار وتبتعد أكثر فأكثر، كانت تعابير وجهها يشوبها حزن مستذكرة ما دار بينها وبين السيد عمار، تتمالك نفسها قبل أن تفقد أعصابها، وتطلب من المضيفة عصير الليمون الذي يروي لها بكل دقة آخر لحظات لها في وطنها، فتهدأ قليلا ويتلاشى الغموض من أمامها، وفجأة بدأت الطائرة تتأرجح تارة تعلو وتارة تنخفض تكاد تلامس الجبال، فترتفع أصوات الركاب كلهم ممسكا بعضهم البعض، في النهاية تستقيم على خط واحد منحدر قليلا، ليشعل زر الإنذار محذرا الجميع بربط أحزمة الأمان، ومن شدة سرعتها وفقد السيطرة عليها اشتعلت النيران بالمحرك الخلفي لها، و ها هو الرائد يقوم بتوجيهها إلى أقرب مطار

شاغر مستعينا بلوحة القيادة، لكن دون جدوى ليرفع السماعة مرة أخرى ويبلغ الجهات المعنية، كان الجو رديئا والاتصال مشوشا وضعيفا ينقطع كلما حاول الاتصال.

تستيقظ من غيبوبتها إلا وهي على شاطئ بحر بجزيرة مهجورة، بها غابات كثيفة كأنها بلاد الأدغال، تملأه أصوات النوارس تحط بحثا عن قوتها، وبقايا الأسماك منتشرة على رمال ذهبية، بينما يتصاعد المد والجزر من حين إلى أخر، تزحف قليلا ظنا منها أنها قادرة على حمل جسمها وملابسها المثقلة بالماء، تصرخ بشدة لهول المنظر، ثم تنهض مهرولة نحو ما تبقى لها من أشلاء مترامية ترقص مع حركة الأمواج على مدى قريب، لم يكن متوقعا أن تزداد حالة الطقس سوءا، وتتهاطل الأمطار بغزارة شديدة فتنطلق حاملة بيديها ما استطاعت حمله في حذر شديد، ثم تتجه نحو أشجار الموز اصطفت على الشريط الساحلي الطويل، لتحتمي بأوراقه العريضة منكمشة على بعضها تعاني الجوع والعطش، يسدل الليل ستاره وتخرج حشراته لعزف ألحان في هذا المكان الهادئ إلى حين طلوع الفجر.

ينتشر الخبر كالنار في الهشيم، فاتحا أفواه الصحفيين والقنوات بالبث المباشر على مدار يوم كامل، ينقلونه بمختلف التقارير والمستجدات حول سقوط الطائرة، ويبدأ عدد الضحايا والمفقودين في ارتفاع كل ساعتين، فتجند الجهات وتفتح مجالا جويا لتقديم الإغاثة والوقوف على سبب سقوطها، لقد تعود عمار على النوم مبكرا و ترك التلفاز مشتعلا بعد عمله الشاق في بيع الجرائد، لكن هذه المرة و هو يراجع عقد إيجاره لينهيه مع صاحب الشقة متخذا قرار العودة، و بعد دقائق من نهاية الإشهار يتقدم السيد محمود عبد الغني مسؤول القناة الجديدة، ليتحدث بلغة الأرقام عن أخر الخسائر التي وصلته من مكان وقوع الحادث، يلغي عمار ما بدأه لينصت بشدة إلى شهادات الناجين مع ذكر بعض أسماء المفقودين كما جاء في الإعلان من بينهم سيلين، ينكب على يديه من شدة الخبر، و لم يستطع أن يتجرع ما سمعه كأنه في حلم، تنتهي الأخبار العاجلة ليعجّل بالاتصال مباشرة بها، يحاول مرات لكن الرسالة تقول:

إن هاتف مراسلكم مغلق أو خارج مجال التغطية يرجى إعادة المحاولة من جديد.

حينها يتأكد أنها من المفقودين الذين لم تُحضر جثثهم بعد، الساعة تشير إلى الثانية صباحا والوقت متأخرا فلا حيلة بيده سوى انتظار الساعات المتبقية، يمد الفجر خيوطه ويتحسن الطقس قليلا وتتحسن معه الرؤية تدريجيا، يخرج عمار من شقته مطأطأ الرأس وعيناه منتفختان، فلا النوم داهمه ولا القلب مرتاح، تثقله أفكاره وتبطئ مشيته حاملا أغراضه نحو المطار بعد أن اتصل بصديقه ليحجز له بطاقة السفر. يتابع سيره ويسابق الزمن لكيلا يتأخر إذ تلفت انتباهه حزم جرائد مكتوبة بمختلف اللغات مرمية أمام المحل لم ترتب بعد، تظهر منها صورة سيلين بالحجم الكبير تعانق العنوان على الصفحة الأولى، يسحب إحداها ويريد أن يقرأ ما كتب عنها من مستجدات متابعا سيره في تأن، ثم يتفطن مع نفسه خوفا من التأخر فيأخذها في جيب معطفه، تيقن أن خطواته لن توصله في الوقت المحدد ليهم بتوقيف

سيارة مارة به، ساعدته على الوصول ربع ساعة قبل الانطلاق، يصعد على متن الطائرة ومع رفع الشارة تبدأ في الارتفاع والابتعاد.

تئن سيلين من شدة العطش و الجوع لساعات طويلة، قد تجاوزت الليل بأكمله و توقفت الفرق عن مواصلة البحث، مع مرور الدقائق تنقشع السحب بعد ليل طويل، لتنتشر النجوم في السماء يصاحبها بدر ينير المكان معلنا طقسا معتدلا، تلامس خدها قطرات المطر المتجمعة فوق أوراق الموز المخضر، فتستيقظ فجأة و تسحبها نحو فمها، لتروى عطشها ثم تقترب من الشاطئ مهرولة تلتفت يمينا و يسارا في كل الاتجاهين، بحثا عن مخرجا أو أي إنسان يقدم لها يد المساعدة، قد ضاع هاتفها كما تبعثرت أوراق كتابها فهي تسبح فوق مياه البحر، و قد انسل الحبر منها و رمت أمواجه بعض الأشلاء هنا و هناك، تابعت تراقب الأفق البعيد علها ترى حياة هناك، ثم تعود أدراجها نحو أشجار الموز لتصارع حياتها من أجل البقاء، و سد جوعها رغم عدم نضجها و تسقط رافعة صوتها بالعويل المتواصل.

تمر ثلاثة أيام وهي على هذه الحالة، إلى أن ظهر قارب صيد من الجهة الجنوبية، قارب متوسط الحجم يبدو جديدا لمجموعة من الصيادين، كان عددهم أربعة تعالت أصواتهم في مرح، يرتبون صناديق مملوءة بما استطاعوا صيده، فينتبه أحدهم إلى تلك الأشلاء المترامية ظنا منه أنها من أعماق البحر تقدفها أمواجه كل صباح، لينطلق إليها متأكدا أن أحدا ما ضاع به السبيل في هذه الجزيرة الموحشة، ثم ينادي على أصدقاءه كأنه رأى شيئا:

انظروا هناك شخص ما خلف الأشجار، يبدو أنها سيدة.

يتهافتون ويصرخون بصوت عال:

مرحى، مرحى.

ثم يحاصرون المكان من كل جهة ويقتربون شيئا فشيئا، وبحدر شديد يحاولون استدراجها:

هل أنت بخير؟ كيف وصلت إلى هنا؟

شدها الخوف في بداية الأمر ثم تستسلم وترد في شجاعة:

لقد تحطمت الطائرة التي كنت على متنها، ولم أستيقظ إلا وأنا على هذه الجزيرة، ألم تسمعوا بالخبر.

كأن قلبها اطمئن لهم ولم تدرك خطورة الوضع فاقترح كبيرهم، و هو صياد طويل القامة ذو جسم ضخم مفتول الدراع، أن يأخذها إلى أقرب مركز للشرطة بالجهة المقابلة قائلا:

نحن من هذه المنطقة تعالي نوصلك إلى مركز الشرطة.

يساعدها على الوقوف والصعود على متن القارب، ثم يقدم لها بعض السمك المشوي مع قارورة ماء، فتود لو تشرب عصير الليمون. يضحك أحدهم مقهقها سائلا متعجبا:

عصير الليمون، أيوجد عصير الليمون؟

تسحب نفسها إلى زاوية القارب، تراقب حركاتهم حيث ينظفونه بالمياه منطلقين دون توقف، يصلون إلى منطقة يتوارى لها من بعيد كوخ

صغير، وتسمع صوت نباح الكلاب، فصرخت وهمت بالقفز ليباغتها كبيرهم بضربة على الرأس أفقدها وعيها، ثم تُحمل مكبلة الأيدي من غير صراخ أو حركة، ويواصل الباقون نحو المرساة لبيع صناديق السمك والعودة مباشرة نحو الكوخ.

يقاوم عمار تفسيرات تعددت حول الأخبار التي يقرأها من الجريدة، بعد أن أخرجها من جيب معطفه، ربما لن يتخلى عنها لاحقا فقد تتوافق مع وقائع الحادث، وليس بإمكانه إعادة عقارب ساعته إلى الوراء، لكي يكون معها كأول نظرة شدته في المرآة الأمامية لسيارته، أو كأول حديث دار بينه وبين سيلين. يصحو من شروده وينتهي من توزيع أدوار مسرحيته على أفكاره، تماما كما انتهت شخصيتها المفضلة، لكن من المؤكد أن قلبه يحترق لمعرفته للحقيقة كاملة وفشل مخططه، فلا بد أن يجتمع بها تحت أي ظرف كان، فإحساسه يخبره أنها على قيد الحياة والشيء الوحيد فقدانها فقط، ثم أطلق تعليقا أثار فضوله حول بعض الوقائع قائلا:

لماذا لم تهتم الصحافة بنتائج التحقيقات حول الصندوق الأسود للطائرة؟

ثم توقف قليلا وأضاف:

نفترض انهم فعلوا ذلك فهل ستعود سيلين إلى الحياة؟

بمعنى آخر هذا التناقض الذي يعتريه، دليل على انه متعلق بها لكن مشاعره تفضحه أينما كان، غير انه لم ينجح في ذلك تقترب منه المضيفة مبتسمة ثم تنظر إليه وتسأله:

ماذا تريد أن تشرب؟

أدرك أهمية العبارة فأسرع بالرد:

عصير الليمون من فضلك.

كأنه يعوض على نفسه ما فقده في هذا الكأس، الذي يختزل برائحته المسافة الطويلة للرحلة مستقبلا وطنه، ومستعدا لبدأ العمل كسائق سيارة الأجرة كان قد ارتاح منها مدة عام. تحط الطائرة في حركة خفيفة إلى أن توقفت تماما، لينزل منها متجها نحو موقف الحافلات حاملا معه ألما وأملا كتجربة أولى عاشها.

لم يتفق هؤلاء الصيادين حول مصير سيلين، مما أثار غضب كبيرهم واضطر إلى فك قيودها والسماح لها بغسل أنفها الملطخ بالدماء، الذي أصيب بالرعاف حين تلقت تلك الضربة على الرأس، والرمل العالق بها من كثرة الجري والصراخ، ثم ناولها بعض الطعام المتوفر لديهم يبدو كطعام الكلاب، اختلط بين السمك والأرز، أخذت تنظر إليهم الواحد تلوى الآخر كانت تنظر في أعينهم مباشرة ثم شكرتهم على المساعدة فلم يتردد أحدهم وقال:

دعونا ننهي هذه المسألة.

مما أثار انتباهها الصعوبة البالغة في فهم ما يدور بينهم وما يخططون له، يقترب منها أحدهم معلنا المساومة من اجل إطلاق سراحها، هذا ما توصلوا إليه منذ قليل فلم يكن منها إلا الرضوخ بلا جدال أو محاولة الهرب.

توشك الشمس على المغيب وقد أنهكها التعب، حين أطلقت العنان لتفكيرها نحو تلك المقولة، مسترجعة كل الأحداث في غمرة من الهدوء

التام الذي عم المكان، لم تستطع سماع أي صوت حتى نباح الكلاب اختفى. استجمعت قواها لأنه من الصعب المجازفة مرة أخرى، راحت تقترب من باب الكوخ المصنوع من الخشب في كل حذر وانتباه، إلى أن أصبحت خارجه وانطلقت تركض ثم هامت على وجهها متجاوزة كل الأشجار والصخور، تارة تسقط وتارة أخرى تقاوم الأحراش في المنحدرات، لم تتخيل يوما ما كيف سيكون الأمر، لكنها صممت في النهاية على هذه الطريقة وكانت واثقة جدا أنها ستصل إلى أقرب مكان يعج بالحركة إنها المدينة.

يرتب محمود عبد الغني من زاوية أخرى لأحداث رواية جديدة، لم يضع مقدمتها بعد ويحبذ لو تكون خارج البلاد مبعدا عنه الشبهات، لكن قلبه لم يلن بعدما قدم في برنامج حصري تلك الوقائع مباشرة على قناته الجديدة، ويعرف أن سيلين هي ابنة الضحية التي سرق منها النفس الأخير في روايته، التي مازال يحتفظ بها بين مجموعة من رواياته منها القديمة، بل يضعها صوب عينيه كلما رفع رأسه يراها بغلافها الأسود المائل إلى الأبيض، يضم بصمات خارجة عن القانون، يبالغ في ترتيب الأدوار وفي

قراءة الأفكار بين منزله ومكان عمله، إلى غاية صياغة الحبكة بحلتها الجديدة في انتظار وصول الدعوة.

دعوة إلى حضور فعاليات المؤتمر الدولي للصحفيين في أحد البلدان، ثمّ اختياره من طرف المسؤول الأعلى، هذه الدعوة سترسل له عن طريق الايمايل ليقوم بفتحة في رغبة شديدة لمعرفة التاريخ والتوقيت بالضبط لينهي كل الإجراءات، ثم يبدأ في بالنقر على الرسائل التي تصله، ويتفحصها بتمعن الواحدة تلوى الأخرى، ربما الرسالة الأولى لا الرسالة الثانية غير متأكد بسبب كثرة الرسائل، لا إنها الرسالة ما قبل الأخيرة. يعرف ذلك من خلال الشعار الموجود في الأعلى وختم الرئيس الأعلى، كما تظهر صورة البناية التي سيتم فيها عقد هذا المؤتمر في الأسفل، لم يستطع مقاومة هذه الرغبة وأخذ يطبعها في صفحتين بكل محتوياتها، وبعدها ينادي على مساعدته ليخبرها بأنه سيغادر مع بداية الأسبوع القادم وأن غيابه هذه المرة سيطول، لترتب له بعض الأوراق وتعلن الخبر في لوحة الإعلانات، ليقرأه الجميع ويؤجل الأشغال على حين عودته، فلم يبق إلا يومين على بداية أسبوع جديد، يحط الرحال متجها نحو المؤتمر

الصحفي، الذي سينعقد بحضور مجموعة من الصحفيين القدامى، يصل في أمسية تفصل اليوم المحدد متظاهرا بجديته للحضور، وهو على أهبة الاستعداد للفصل في وقائع جديدة، واختيار العنوان المناسب لروايته التي تعدّ نصفها كتابة.

يستأجر شقة كبيرة بإحدى الإقامات الفاخرة لرجال الأعمال، اصطفت أمامها سيارات الأجرة بلون واحد ينتظر أصحابها أية خدمة، وفي الصباح الباكر يحمل محفظته ويطلب واحدة، لأن المكان يفصله شارعين للوصول إليه، يصعد إلى السيارة كأحد الشخصيات المرموقة، و يسحب معطفه على جسمه في هدوء، يضبط السائق ساعته الموضوعة بمقربة من عجلة القيادة، المزينة باللونين الأبيض و الأزرق، و يشغل الراديو على الإذاعة الجهوية لكن كانت مشوشة قليلا، ليختار إذاعة أجنبية بصوت منخفض حتى لا يزعجه ثم ينطلقا بعدما أعطى الضوء الأخضر الإشارة ليعبر إلى الشارع الأول، إشارات المرور موزعة عند كل انعطاف، ليس من السهل الانطلاق بسرعة أو تجاوز أي سيارة أخرى، فما كان عليه إلا

السير بتأن بسرعة لا تتجاوز عشرون كلومتر في الساعة، هذا أقصى حد ممكن في المدينة.

ينزعج محمود عبد الغني من حركة المرور، التي تتوقف لكن عقارب الساعة لا تتوقف، ترى المارة يتجاوزون الطريق إما على ممر الراجلين أو من دونه ليطلب من السائق اختصار المسافة عبر هذا الشارع:

أيمكنك الانعطاف في هذا الاتجاه؟

يرفع السائق رأسه، إنه السيد عمار قد نقص وزنه قليلا وطال شاربه كالسوري وداوم على أناقته وهندامه، ينظر في المرآة الأمامية بدهشة ثم أخفاها ليسأله كأنه لا يعرفه:

أأنت الذي قدمت برنامجا حصريا في القناة الجديدة حول الحادثة التي وقعت في الأيام القليلة الماضية؟

يرد عليه من غير مبالاة وهو يشم رائحة السمك المشوي، الذي يعد الطبق الشهير في عادات هذه المدينة، وينصت إلى بعض المواهب هناك على الأرصفة قائلا:

اسمي السيد محمود عبد الغني، مسؤول القناة الجديدة لدي مؤتمر صحفي.

ثم يطلب منه أن يسرع قليلا، فيكبح عمار على فرامل السيارة فجأة دون أن يوقفها وراح يتمتم بين نفسه:

يا ترى ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟ هو لا يتذكر بائع الجرائد، القاتل حر يا لهذه الصدفة !.

كلما تمر الدقائق يزداد غيظا، لأن الوقت ليس في صالحه وفعاليات المؤتمر على وشك الانطلاق، وفي النهاية يتمالك نفسه ويأمره بالتوقف جانبا، لينزل من السيارة ثم يشير بيده إلى بناية المؤتمر على مقربة منه:

هذه هي البناية لقد وصلنا في الوقت المحدد تفضل بطاقتي.

ثم أضاف:

اتصل بي هذا المساء إني أحتاج خدمتك. اتفقنا.

ينصرف محمود عبد الغني نحو البناية التي يغلب عليها الطابع الحضاري الجديد دو تصميم جميل وعلو شاهق، ويمكث عمار داخل سيارته محتارا في هذه الصدفة، يقلب عناوين كثيرة ليختار لها عنوان، يفضل أن يكون مأساويا أكثر لأنه يليق بقاتل طليق، ما أيقظ في داخله تلك المشاعر التي كان يكنها لسيلين، ثم أخذ يضرب بيديه على عجلة القيادة في أسى كبير، ينظر نحو هاتفه و حين هم بمحاولة الاتصال، يطلبه أحد السياح لخدمة جديدة لا تبعد سوى مسافة، ينزل من السيارة ليقدم التحية للسائح في احترام، هذا واجبه من أجل كسب زبائن جدد، ولم يرفض أي طلب مند أن عاد إلى وطنه. يسلك المنعطف الأخير في الطريق السريع المزدوج، إلى غاية نهاية عمله ليعود إلى موقف سيارات الأجرة أمام الإقامات الفاخرة لرجال الأعمال.

تقطع سيلين ما بقي من طريق غير معبدة، بجانب تلك الغابة الكثيفة في حذر وهي تلهث من شدة العطش، كما تمزقت ملابسها حين تخطت الأسلاك الشائكة للمزارع، وتلبد شعرها وشعث جسمها، تلتفت وراءها لتتأكد من خلو المكان من أي شخص يحاول اللحاق بها، ثم

تستمر في تخطي البرك التي وضعت أمامها لافتات تحذير لمستعملي الطريق. يسدل الليل ظلامه و تُشعل الأضواء على أرصفة الطرقات مؤدية إلى قلب المدينة، كما اشتعلت أيضا في لافتات المتاجر و المقاهي ترقص لجذب الزبائن، لم يشغل بالها إلاّ النجاة بجلدها و محاولة الاتصال بأحد أقرباءها، لكي تخبرهم بمكانها الذي لا تعرفه لحد الآن، تقترب من لافتة منتصبة على الرصيف كُتب عليها مدخل المدينة - مرحبا بكم - بجانبها متجر صغير، مخصص لبيع الجرائد و الكتب القديمة و الروايات العربية و الأجنبية طالها الغبار من كل جهة، تستأذن عند الدخول مشتتة نظرها عليها، فإذا بصاحب المتجر ينهرها بعد أن طلبت منه كأس ماء و يسرع لإخراجها، فينادي عليها عجوز ذو نظارات مزدوجة الاستعمال، صاحب الرأس الأصلع يبدو سياسيا أكثر منه صديق لصاحب المتجر، كان جالسا بالقرب من الباب سمح لها بالجلوس لتلتقط أنفاسها، و تهدأ من روعها ثم قدم لها الماء لتشرب و تغتسل .

يتمعن العجوز عن مقربة منها في ملامحها، التي كادت أن تختفي ويتذكر أين شاهد مثلها قبل، بعد برهة اضطر إلى إخراج الجرائد

القديمة التي مر عليها أسبوع كامل، كانت مرتبة داخل خزانة كبيرة، يقشعر بدنها من شدة البرد وقاطعته بصوت خافت لا تكاد تقوى على الكلام:

ألديك معطفا إضافيا فالبرد قارس.

يرمي عليها من دون انتظار معطفا قديما تآكلت أطرافه، حاملا في يده الجريدة التي تحتفظ بتلك الملامح، لصحفية داع صيتها واكتسبت شهرة كبيرة ثم سألها:

لقد أعلنوا فقدانك، أليست هذه صورتك؟

تمسك الجريدة في بكاء شديد، كما لو أن الكرة الأرضية دارت بها العالم كله لينتهي بها المطاف في بلد لا تعرف اسمه، ولا تدري إلى إين ستكون وجهتها المقبلة، شاكرة أياه على حسن معاملته لها، تنهض متثاقلة في انكماش ثم تسأله:

كيف يمكنني الذهاب إلى المدينة؟ ربما أستطيع أن أتدبر بعض المال فقد ضاع مني كل شيء.

ينظر إليها في خجل لحالها ويرد بعفوية:

المدينة ليست بعيدة اسلكي هذا الاتجاه فقط. ثم اخرج ورقتين نقديتين وقال:

تفضلي هذه نقود ستساعدك على الوصول إلى المدينة.

تشكره مرة ثانية وتنطلق مطأطأة الرأس، في طريق تكثر فيه المنعرجات ترسم صورة متسولة، استطاع الزمن أن يغير حالها دون الرأفة بها، كلما اقتربت من لافتة تقرأها بعيونها وتتبعها، حتى وصلت إلى وسط المدينة أين تنتشر العائلات بحديقة عامة، زينت بالأضواء عند مدخلها وزادها صوت الموسيقى صخبا، و اكتظت بحركة العشاق الذين انتقلوا إليها من مختلف الطبقات . ترمي على كل خطوة تمشيها علامات استفهام، كما كانت ترمي على كل مسرحية تألفها وردة، لقد دبلت تلك الورود لتنهش جسمها الأشواك، وتحاصرها بلغة مجحفة في حقها، تدخل الحديقة وتجلس على كرسي في أقصى اليمين، كان هادئا وضوؤه خافت

قليلا تراقب ابتسامات العشاق، وتنظر إلى أيديهم المتشابكة ربما تستطيع قراءة ما يدور بينهم، ثم تدنو قليلا من أحدهم لتمازحه قائلة:

صديقتك نحيلة ماذا تفعل بها؟

ينزعج بشدة و يضطرب ممسكا بصديقته، مغادرا المكان من دون أن يرد عليها و لو بكلمة، لأنه رأى فيها حالة المتسول الذي لا مأوى له، أمسكت بعلبة العصير و أخدت تشرب الجُّزعة التي تركوها على الطاولة، ثم تعود إلى مكانها منكمشة على بعضها، و بعد حين تصل فرقة مشهورة بالمدينة تتكون من عشرين فردا، تتقدمهم امرأة في الثلاثين يرتدون نفس الملابس التي تدل على انهم من الفن السابع، يرابطون حول طاولات في مجموعتين و بعضهم فضل الرقص على وقع الموسيقى الصاخبة، فتنهض سيلين بعفوية و تتقدم نحوهم غير مرتبكة أو مدركة لما سيحدث لها بينهم، ثم تقف في ابتسامة استحسنتها صاحبة الثلاثين قائلة:

أيمكنني الجلوس معكم؟

ينظر البقية إليها بسخرية، جعلتها تنسحب بقلب موجوع، وتعانق مكانها مرة أخرى كالشبح الذي يخافه الناس، لا تدري متى ينتهي هذا المصير المزعج، تحمل صاحبة الثلاثين بعض العصير وتقترب منها، مستأنسة بألفاظ جميلة أثارت فضولها حول ما ينشطون فيه ثم تسألها:

رأيتكم تدخلون في مجموعة كبيرة في أي مجال تنشطون؟

قدمت لها العصير ثم أجابتها:

نحن من محبي هواية المسرح، لقد التقينا صدفة وبدأ عددنا يتزايد إلى أن صرنا فريق متكاملا، وإني لأرى في عيونك سرا تخفيه ولهجتك تفضحك. ما هي قصتك؟

حنت برأسها إلى الأسفل ثم رفعته قائلة:

أنا صحفية توفيت والدتي لمّا كنت أتلقى تكوينا خارج البلاد، وحين عدت إلى أرض الوطن اشتغلت كصحفية في قناة الجديدة، لم أستطع مواصلة عملي هناك فقررت الاستقالة ثم السفر مجددا، وأثناء سفري لم يسعفني الحظ حين سقطت بنا الطائرة على جزيرة مهجورة، منذ

ذلك الحين وأنا أعاني إلى أن وصلت إلى هنا من دون مأكل أو مشرب، لقد فقدت كل شيء حتى ملابسي تمزقت وكتابي المفضل، هاتفي كل شيء ضاع مني.

تسقط أرضا كالغصن المكسور، وتجهش بالبكاء فاستغرب من حولها وأخذوا يتساءلون عن سبب بكائها، ثم صاح أحدهم:

إنها صحفية القناة الجديدة، لقد رأيتها مرات في خرجاتها التلفزيونية وأعلنوا فقدانها عندما سقطت الطائرة.

انقشع الغموض من جهتها وبرز الهدوء على ملامح وجهها، ما زاد الفضول بين من تجمع حولها لسماع الأحداث مقدمين لها يد العون، كانت زينب صاحبة الثلاثين عاما والتي تشتهر بين فرقتها بالشخصية الواقعية، فهي تكره الأدوار القصيرة حين تتقدم على خشبة المسرح، وتأسر الجمهور بكلامها وحركاتها التي تعكس طبيعة شخصيتها، تمسح الدموع عن خديها في حين جمع الآخرون مبلغا ماليا، قد يساعدها في

قضاء هذه الليلة في أحد الفنادق الصغيرة وتغيير ملابسها إلى حين مغادرتها البلاد.

تخالف زينب كل التوقعات التي كانت تسيطر على سيلين في عنف كبير، كان يتخبط بداخلها و يعلن النهاية التعيسة لعمر لم يتجاوز الخمس و عشرين عاما، حيث وجهتها إلى أقرب مكان تمكث فيه بثمن زهيد قدر الخدمات المقدمة فيه، و لم يخطر ببال أحد أن تقترح عليها طلبا يمكّنها من استعادة شهرتها، التي ضاعت بعد اتخاذها القرار الخاطئ، لم يكن طلبا عاديا أو عملا بدخل ضعيف، و إنما ترفع تحديا آخر في الفرقة المسرحية كمذيعة أخبار جديدة بمساعدة الجميع، إنه حماس الشباب الذي سيغيرها إلى الأحسن و يطفئ الهالات السوداء، التي سكنت جفون عينيها فقد استوطنها اليأس، و تمردت الأحلام في لياليها الماضية.

أخرجت زينب الهاتف من جيبها، وابتعدت قليلا عن الضجيج لتتصل بأخيها سائق سيارة الأجرة لكي يقدم المساعدة قائلة:

أين أنت، هل يمكنك الانضمام إلينا الآن؟

يرد عليها بصوت مرتفع يكاد لا يسمع صوتها:

أنا في خدمة أحد المسؤولين أمام مقر المؤتمر الصحفي الذي بدأ اليوم.

تشكره في احترام قائلة:

شكرا، ظننتك متفرغا لكن لا عليك اهتم بنفسك كثيرا.

في أمسية اليوم وقبل نهاية المؤتمر الصحفي، لم يشأ عمار الاتصال بمحمود عبد الغني كما كان متفق، بل أسرع بسيارته نحو البناية منتظرا خروجه، يقاوم دقات قلبه التي تجبره على كشف حقيقة القاتل، لكن كيف يمكنه ذلك؟ ومن سيصدقه؟ يسرح بذهنه نحو صاحب المقهى الصغيرة السيد جمال على الطرف الآخر من العالم، يستميل أفكاره نحو الرغبة في السفر مجددا، حيث تجده متأكدا كل التأكد أنه قادر على ذلك، ثم راح يفتش بين أوراق سيارته المرمية أمامه في شغف كبير، ظنا منه أنه سيجد معلومة صغيرة توصله بصاحب المقهى، ليتذكر في الأخير

أنه لم يكن إلا ضيفا خفيفا، يمر عليه أحيانا دون مشاركته الحديث حيث كان يطل عليه، ويجلس في صمت كأن وجهه قد قدّ من خشب.

ماهي إلا لحظات ويخرج السيد محمود عبد الغني حاملا محفظته وبعض الأوراق بيده، ينظر إليها في تململ كأن أمرا ما أزعجه، ثم يخفيها داخل جيب معطفه، قابلت عيناه عيني السائق ليخفي مشاعره ويزيلها من وجهه، ويتظاهر بالسعادة لحضوره هذا المؤتمر قائلا:

لم يكن حضوري من دون فائدة، لقد تطرقت إلى عدة مواضيع.

يسرع السائق لفتح باب السيارة مبتسما:

لا تزعج نفسك يا سيدي تفضل.

يصعد في هدوء مبعدا عنه احتمالا يكاد ينطوي عليه في قضية القتل التي لاتزال رائحتها تنبعث من ملابسه، اتكأ إلى الخلف و نظر نحو المرآه الأمامية في إعجاب قائلا:

أعذرني إنك تجتهد كثيرا لا أصدق أنك جاد في عملك.

يخفض السائق صوت الراديو ويرد عليه:

هذا لطف منك.

لم يستطع أن يرى تفاصيله الداخلية التي تسببت في حزن سيلين، و ابتعادها عما حولها، و رغم ذلك يواصل مجاراة أفكاره و التحرك في اتجاه واحد مع هذا السيد- محمود عبد الغني-، و يستمر في تجنب المحادثات الكثيرة لكي لا يقع في زلات اللسان و يكشف أمره، و بقي يستمع إلى أراءه حول ما جرى في المؤتمر الصحفي، ظنا منه أنّ الجميع يفهم في مثل هذه المواضيع، و بعد عدة دقائق يصل إلى شقته الكبيرة من غير أن يشعر بطول الطريق، فقد قلت حركة المرور و لم يتوقف عن الكلام كما لم يتكلم من قبل.

يدور عمار في متاهة احتدم الصراع بين شخصين، فيما تبقى القضية عالقة في أفواه العامة إلى إشعار آخر، كلاهما يتجنب الحديث عنها أو ممارسة الدعاية لها، و يتجه الطرفان إلى اقتناص الفرص الغامضة بين جدب و رد من دون هدر للوقت، فهي تئن على مصيرها

المجهول الذي أوقعها في الاختيار الخاطئ، كلما تتذكر الأحداث و حين تستلقي على فراشها، لتنثر العبرات على خديها من شدة الاختناق، تدخل إلى تلك الشقة التي استأجرتها لليلة واحدة في قمة الإجهاد الذي لاحقها، ترتب الكلمات المتفرقة المرمية على مسامعها، تفوهت بها زينب لحظة الاقتراب منها، فتتأجج في قلبها الثورة من اجل الصعود إلى القمة مجددا، و تدفع برغبتها إلى الدخول في مفاوضة حول قرارها الذي ستتخذه، ناهيك عن حبها لمثل هذه المهن، تستيقظ من غيبوبتها البسيطة و تعود إلى وسط الرياح، حاملة معها نفس الأحداث التي لا تبتعد عنها، حتى تقف على مرأى محبيها و المعجبين بها، لتطفئ بداخلها صهد الحياة الغريبة و الطويلة.

أما هو بمنتصف الليل يجلس على الأريكة في راحة محاورا كلماته، فتهرب منه الحروف لتصنع لنفسها ملجأ، و ترفض الاحتكاك به أمام كبريائه، ينفرد في زوايا الصمت و يسافر عبر أخدود الكتابة، ليختار عنوانا مناسبا لروايته القادمة في رحاب شخصيات، سيختارها عن قناعة و بلا زيف، من دون تريث يبدأ في صياغة المصطلحات، معاتبا نفسه خوفا أن

يكتشف أمره حين يرتدي حلته الجديدة، مع تجربة تتسلق الأنفاس بحثا عن ضحية لا تقاوم. ينفخ صدره و يبعث زفيرا طويلا ينسل منه كخيط دخان، و يجعل من أوراقه كومة يحرقها مرغما عنه. فقط اختلطت عليه أساليب الكتابة بين العنف و الرأفة في هذه المدينة التي لا يعرف عنها سوى القليل، ثم ينهض ممسكا برأسه من شدة الصداع يختار التسلل إليه من حين إلى آخر، يتبعه انفصال في نظرته نحو وقائع لم تظهر بعد، صار يتخيل سيلين تتعقبه عند كل جملة ينتهي منها، ليعاود حرقها مرة أخرى مع ذاك الرماد المتراكم بالقرب من سلة المهملات. و تمقته جفونه لكثرة السهر فلا يدري إن استطاع النهوض باكرا أم لا، فينام و على صدره ساعة من الجمر في انتظار ما يحمله نهار الغد.

يعود عمار أدراجه في نقاشات حادة تجذبه نحو تنفيذ خطته شبه ملزمة عليه، كما يرى من الضروري الإسراع في تنفيذها، قبل أن يغادر محمود عبد الغني يقصد القاتل إلى بلاده مع نهاية الشهر. يتوقف بسيارته عند إشارة المرور في المنعطف الأخير، لينتقي أي الطرق ستوصله أمام عتبة الانطلاق بين هذه الشوارع، حيث تكون مكتظة طيلة اليوم إلى

غاية حلول منتصف الليل، ليحاصرها الهدوء من كل جانب و تفرش سماءها بالنجوم، كالحراس ينتظرون وقوع الجريمة ثم يواصل سيره فقد انتهى وقت العمل، و بين الحين و الآخر تهب عليه نسمات باردة، تحمل معها رائحة سيلين قد مرت من هنا مند وقت قريب، نسمات تخبره بالتوقف عند هذه البناية و هو لا يبالي كأنه يعادي من خذله و أفشل خطته، ثم ساورته مخاوف حول أن يكون قد حدث لها شيء ما، وراح يعيد عقارب الساعة إلى الوراء في ضعف يمزق قلبه، لكن لا يتخيل أنها هنا في بلده.

يدخل غرفته بعد تعب شديد، ويرمي ما كان يحمل في يديه ثم أضاف معترفا انه متذمر، لأن لا شيء يحدث مما يخطط له إذن لابد من المواجهة فهذا آخر حلا ممكنا. تفاجأه زينب فيسود الصمت و يغلق عينيه، يبدو نائما لكنه لم يصمد كثيرا ربما ازعجه دخولها فينهض من مكانه و يقف مستعدا للحديث قائلا:

أظن أنك قد سمعت بالأحداث الأخيرة التي وقعت حين سافرت العام الماضي إلى ذلك البلد؟

يتوقف قليلا ثم يتابع:

لا أدري تماما ما الذي كنت سأقوله، ولكن هل تظني أنني أخفي شيئا؟

تنظر إليه أخته قائلة:

لعلك كنت تريد قول شيء ما لم افهم قصدك!

كانت ملامحه ملفتة للانتباه فاستنتجت أن هناك خطب ما فلم يستطع خداعها ثم قاطعته:

الساعة الثانية صباحا اخلد للنوم.

وكانت عيناها مشدودتان إليه، يرفع رأسه ويسألها:

لماذا أنت مستيقظة في هذا الوقت؟

إذا كان الأمر كذلك فهي كانت تنتظره إلى حين عودته لتفصح عما تحمله من جديد، في الوقت ذاته تقترب منه وتخبره:

لقد التقيت اليوم بسيدة انقطع عنها السبيل في أرضنا، كانت ضعيفة نفسيا فقدمت لها المساعدة وطلبت منها العمل لدى فرقتنا. ما رأيك؟

في الواقع كان ينصت إليها و عقله في اللاوعي، يجمع كل الاحتمالات لكي يكون قادرا على ترصد خطوات القاتل فتنتشله بقوة و بعبارة جعلته يعود بسرعة قائلة:

ستعمل كصحفية.

يرد عليه بسؤال فلا يملك الآن أجوبة لما تقوله:

ماذا؟ صحفية ما اسمها؟

عجيب أمر هذا الرجل يلح على معرفة اسمها في أواخر الليل، إنها حاجة في نفس عمار، تستغرب لما يحدث له قائلة:

اعذرني يا أخي إني لا أتذكر اسمها جيدا.

ثم تنصرف وهي تتمتم:

ربما هناك امر ما لم أعرفه بعد أو أن أخي على علاقة ما؟، يا ترى كيف سأعرف ذلك؟

تحتضنه الساعات المتبقية لحلول يوم جديد، وتأخذه في نوم عميق إلى أن استيقظ على وقع جرس الباب الخارجي للمنزل، فيهرع مسرعا نحوه و تلحق به أخته، عندها يجدا موزع البريد يحمل في يده رسالة باسم زينب، توقع على ورقة الاستلام ثم تتفقد محتواها و من أي جهة وصلتها، كانت هذه الرسالة دعوة للمشاركة في أكبر تظاهرة ستشهدها البلاد في الأيام المقبلة حول الفن المسرحي، و تبدأ في تحليل الموضوع حول كيفية المشاركة من جهة و من جهة أخرى ستحتاج إلى تغطية صحفية، لأنها ستكون على قائمة أبرز المبدعين بتنافسها مع الكثير من المشاركين، يبتسم أخوها و يغادر المنزل نحو عمله الذي يتأخر عنه بضع دقائق، فلم يكن يتأخر من قبل و لم يتعود على السهر كثيرا، كما أضافت أخته جزءا من الإرهاق بتساؤلاتها الهاربة من أخبار جديدة.

تدرك زينب جيدا أن الصيد في المياه العكرة لا يجدي نفعا، فلابد من الولوج إلى الشهرة من بابه الواسع، لتدخل في سباق مع الزمن من

أجل التحضير لهذه المشاركة، كانت تقصد بكلامها أن سيلين هي الصفحة المواتية لبلوغ ذاك القدر من الاهتمام ممن حولها، أصبحت تركض على نفس إيقاع أخيها، قبل أن تغادر تلك السيدة نهائيا و لا يوجد الكثير لكي تفكر فيه، و من الأفضل أن تسرع إلى مقابلتها فلا شك أنها ستقبل العرض. تصل أمام الشقة التي استأجرتها منذ الليلة البارحة مستعدة لاقتناص هذه الفرصة ريثما تخرج، و في هذه الأثناء تزيح سيلين الستار عن النافذة و تلوّح لها بيدها في تواضع كبير، لتهم بالخروج لكي تستفسر عما يدور بذهنها، يلتقيان عند الباب فتطلب منها الدخول و يتبادلان التحية و العناق. ليس من السهل الوقوف على مخلفات إحداث العام الماضي، أو المشي جانبا و هي تلامسها و تهيئ المكان لها من أجل الغوص في تجربة جديدة، و ليس البوح بحقيقة الأمر هو ما يؤثر فيها، لكنها كانت على وشك الظهور للعلن، ففي غفلة منها تركتها و لم تبد أي أهمية للسيد عمار، و بتردد شديد ابتسمت لها وقالت:

أراك في قمة نشاط ما السبب وراء ذلك؟

حاولت بقوة أن تخفيها لكنها من الأفضل أن تجيبها:

لقد قبلت العرض في اللحظات الأخيرة.

لم يتسن لزينب إلا أن تشرح لها قيمة وجودها بينهم، وإنها على موعد خاص بالعرض المسرحي والمشاركة فيه بقوة، ثم ترد عليها وهي ترتشف فنجان قهوة أعدته لها سيلين قائلة:

لقد أعجبتني القهوة.

حينها تلاحظ أن القهوة بها نكهة طيبة فهي لا تجيد الإعلام فقط و إنما تجد مكانا لها في المطبخ

بدا واضحا أنها تريد كسب ثقتها ببعض المجاملات أثناء الحديث، مما زاد الود بينهما وقلل من الرسمية حول موضوع العرض، وكانا الاثنان يقفان جنبا إلى جنبا عند الباب الخارجي للشقة، كما كانت تحلم باسترجاع مكانها الضائع ثم تسألها:

متى تنطلق هذه التظاهرة؟

تنظر زينب إلى ساعتها التي كانت تشير إلى العاشرة صباحا وتجيبها:

لم يبق إلا يومين فقط.

أشارت زينب بتحية وداع وطلبت منها الاستعداد لأنه يوم مميز.

تقاوم سيلين الغرق في شرودها، أو ربما خوفها من ظلها الذي لم تجده بعد مشتاقة أكثر إلى الساحة العمومية، فهي مازالت تتذكر تلك المقولة المحجوزة في زاوية كتابها المفضل الذي انهارت أوراقه من شدة تلاطم الأمواج، راحت تبحث في قلق عن العنوان المناسب لهذه التظاهرة، بعد أن غادرت زينب نحو عملها بالفرقة، إن ملامحها ترسم إجابة واضحة كل الوضوح من دون فواصل أو علامات استفهام.

تتوزع الإعلانات على ورق كبير، تجملت بألوان مختلفة رسم عليها رمز الفن المسرحي، و هو عبارة عن قناع بجانبه فنانين، لم يظهر منهم إلا الهيكل العظمي باللون الأبيض على خلفية سوداء، ألصقت على الجدران، بين الأزقة، في الشوارع و عند موقف حافلات معلنة تاريخ و مكان انطلاق التظاهرة، فلم تكن إلا القاعة الكبرى التي تتوسط المدينة، قرب النفق الكبير المؤدي إلى الشارع الأخير على يسار بناية المؤتمر

الصحفي، يصطف أمامها المارة منهم الكبير و الصغير، المثقف و الأمي تراهم يتهامسون حول هذا الملصق بتعليقات، منها الساخرة و منها المشجعة على تنويع مثل هذه التظاهرات، و بعيدا عن مكان التجمع هناك اختار بعض الأطفال التعبير عن طيشهم بتمزيقها، أو الكتابة عليها و منهم أيضا من قام بالرسم عليها، ناهيك عن أصحاب المركبات المختلفة من حين إلى آخر تتوقف إحداها، لينظر السائق في أمر هذه التجمعات، كل هذا جعل من المنظمين يسارعون إلى إعادة إلصاقها بأماكن مختلفة، و الإكثار منها كأنهم في حملة انتخابية.

في هذه الساعة كان محمود عبد الغني في جولة خفيفة قبل العودة إلى المؤتمر، أراد أن يعرف ما يسكن قلوب هؤلاء المواطنين، سالكا النفق نحو القاعة الكبرى إذ بمجموعة تتناقش حول من يرغب في شراء تذاكر الدخول، فمكان من أحدهم إلا أن يطلب منهم الهدوء لأن كل التذاكر على حسابه، ليفرح الجميع و يهتفون له، ثم يتقدمون نحو الإعلان قد ألصق بجانب مخرج النجدة في مقدمة الحافلة، و يشير أحدهم إلى رأس القائمة المشاركين في التظاهرة قائلا:

إنها زينب أخت السيد عمار المعروف بسائق سيارة الأجرة.

يحدق محمود عبد الغني جيدا في الإعلان مندهشا غير مصدق لما يقرأه، كان ما يقرأه غير ما قاله ذاك الشاب، وإنما الاسم الذي ورد في نهايته كتب بالخط العريض راح يردده من دون توقف:

الصحفية سيلين! التغطية إعلامية تحت إشراف السيدة سيلين!

ربما تتشابه الأسماء أو يكون مجرد خطأ، صار كل من يكتب كثيرا يخطأ دون الانتباه إليه أو تصحيحه، ينزل أمام القاعة التي ستحتضن التظاهرة، ليتأكد في كل ما ألصق أن الاسم والمحتوى نفسه فلم يكن مجرد خطأ مطبعي، ينصرف عائدا إلى المؤتمر وهو يخاطب نفسه كمن اختل عقله:

ماذا تعمل هذه السيدة هنا؟ وكيف وصلت؟ يا لهذه الصدفة!

فيم كان يبحث عن إجابات على تساؤلاته، خطر بباله أمرا غير متوقع ثم ارتفعت حاجباه بشيء من الدهشة مرة أخرى، يعني أنه سينظر في فصول روايته التي زاد عن نصفها بعض الصفحات، يريد أن يغلب عليها

أسلوب الرأفة و يبدو متواضعا لكي لا يخفق في ذلك تماما، وفي الأخير أصدر حكمه بصوت يعبر عن الانزعاج قائلا:

لا يهمني هذا إن كانت صدفة أم لا، كل ما في الأمر أن أنتهي من روايتي، العديد من المؤلفين اختاروا ما استطاعوا القيام به و أنا لي مشكلة أخرى لابد أنني سأواجه متاعب جمة.

يتفهم الوضع بطبيعة الحال، لكن هذا ينطوي على الأمر الذي سيقوم به، يفكر مليا و بصمت حول الطريقة التي سيتبعها، و يختار المكان الذي يساعده على ذلك و صار يتصرف كغريب الأطوار، بعد يومين يتحرك المهتمون و المثقفون من الطبقة العامة نحو مدخل القاعة الكبرى، بعدما بيعت كل التذاكر و حجز كل فرد مقعدا أو أكثر، كانت سيلين قد عرفت ما يجب القيام به من تغطية إعلامية، و عن الضجيج الذي يصدر في كل مناسبة، و في نفس اللحظة تنتقل زينب مع فرقتها رفقة سائف سيارة الأجرة السيد عمار، ليدخلا عبر الممر المخصص للفنانين و الصحفيين، ينظر السيد محمود عبد الغني إلى ساعته و هو جالس في مقعده يتوسط الجمهور، و يراقب عن كثب أي

شخص يعرفه مدخنا سيجارة و قد أطفأت الأضواء بالقاعة ليبدأ العرض. استمر الجدال بداخل محمود عبد الغني في انزعاج، واستولت على تفكيره خطة القتل ثم تحرك نحو الممر على وقع أقدامه، حتى وصل إلى غرفة تجمع الصحفيين لينظر عبر ثقب الباب، و يتأكد أنها سيلين تستعد لأخذ دورها في التغطية الإعلامية للعرض الذي ستقدمه زينب، يضغط بيده على الباب ثم يختبأ خوفا من أن يراه أحد الحراس. تتقدم سيلين وهي تحمل الكاميرا على كتفها تلتقط كل حركة تقدمها الفرقة، ثم تغير وضعيتها من مكان إلى آخر متجاوزة الصحفيين من دون اعتراض، وفي الزاوية المقابلة للمقعد الأمامي أين يجلس السيد عمار، فجأة تلمحه عن قرب فتمكث مكانها وكأن الأرض توقفت عن الدوران، قد أصبحت عاجزة عن التحرك أو العودة إلى عملها، يصيبها التفكير العميق ويدفعها التعبير لسؤاله ويتلعثم لسانها:

السيد عمار!، سائق سيارة أجرة ماذا جاء بك إلى هنا !؟.

ينهض من مكانه ولكن الأمر يزداد سوء وكان يعتقد أنه يستطيع شرح الأمور لها قائلا:

السيدة سيلين على قيد الحياة !، كان إحساسي يخبرني ....

لم يكمل كلامه، يقاطعه سقوطها مغميا عليها فتشعر كأن الروح تنسل منها، قد تلقت طعنات سددها محمود عبد الغني بقوة اجتازت حواجز قاسية من العضم، في ذاك الظلام الدامس لا يظهر منه إلا خشبة المسرح، ليصرخ الحاضرون و يهرع الكل فارا باتجاه المخرج، فيتسلل بينهم متظاهرا بأن الأمر لا يعنيه ثم يركب سيارة أجرة لا يعرف أي مكان سيقصده، يسرع عمار ممسكا بها و مناديا طلب المساعدة ليحملها إلى سيارته، تندهش زينب و تتوقف عن العرض، ثم راحت تزيح الكثير من علامات الاستفهام ليحل محلها علامات التعجب و تحرق اللهفة في فمها، لكي تفهم كل شيء حينها تذكرت تلك الليلة حين باشرها بالكلام الغير مفهوم ولم ينهيه بعد، استيقظت من فزعها و انطلقت نحو المستشفى ليس بعيد عن وسط المدينة، إنه يتوارى على الهضبة بعد اجتياز النفق الآخر الذي يؤدي إلى الطريق السريع، فلابد منها الوقوف بجانب أخيها. يصل عمار إلى المستشفى في قلق خوفا على حياة سيلين و الدماء تحيط بها من كل جانب، فقد كانت الطعنات كبيرة غاصت في

ظهرها محدثتا لها نزيف و كان يدها ممسكا بيده، يسرع بها الأطباء و تدخل إلى مصلحة الإنعاش لوقف النزيف و خيط الطعنات، فيما بقى السيد عمار يراقب اللحظات إلى أن وصلت أخته و كل الفريق المسرحي، و تبعتهم الصحافة محدثة ضجيجا كبير فهمّ بالخروج إلى موقف السيارات أمام المستشفى، ليقدم حوارا و لم يتوقف الصحفيين على طرح الأسئلة، انزعج بشدة و توقف عن الإجابة ثم صرخ بوجوههم راجعا إلى مصلحة الإنعاش يسأل الأطباء عنها:

دكتور، دكتور كيف حالتها؟ أخبرني من فضلك.

يرد الدكتور مطأطأ الرأس:

للأسف لا تستطيع الوقوف مرة أخرى لقد أصيبت بشلل تام لا تقوى على الحركة إلا على كرسي متحرك.

يلتفت عمار إلى أخته وقد أوقعه الحزن على الكرسي في ذاك البهو الطويل، وصارت عيناه محمرتين من شدة التعب، تقترب منه زينب وتضمه إليها وتهون عليه مشاركة حزنه، كما لو أنها تفهم ما يدور هنا.

بعد ساعات طويلة من الانتظار يخرج الأطباء برفقة سيلين من غرفة الإنعاش متجهين إلى الغرفة الأخيرة من البهو، لتتلقى الراحة بعد العمليات التي طالت ظهرها و الغرز المنتشرة على العمود الفقري، استطاعت مقاومة الإصابات لتفتح عينيها على الدنيا مجددا، لكن كانت رؤيتها ضعيفة و مشوشة، في حين أسرع الكل ينظر في حالها، و لم تترك الصحافة مجالا إلا وقفت عليه لتنشر الخبر بالصور والتعليقات.

سيلين ممددة على سريرها تحاول الحراك فلا تستطيع، و لم تع نوع إصابتها و درجة خطورتها، تحرك شفتيها للكلام فلا تقوى عليه ثم تنظر إلى كيس الأكسجين، الذي وضع من أجل المساعدة على التنفس إلى حين تحسن حالها، لم تتمالك نفسها و اغرورقت عيناها بالدموع ووجهها الشاحب في حيرة.

ينتشر الخبر بأكثر من صورة و تعليقا للحظات الإنعاش، و لحظة خروجها على قيد الحياة، هناك من جعلها صورة العدد و أفرط في القول ربما كان رأيهم صحيح يحتمل الخطأ، لكن العامة من الناس لا يفرقون بين خبر صحيح و آخر مؤول لأنهم يعتبرون كل ما ينشر صحيح.

هناك بالمقهى الصغيرة، أين يعمل جمال يجلس بعد استراحة الصباح يقلب أوراق جريدة، و قد تعود سماع الأخبار من خلال الراديو القديم الذي يملكه مند سنوات، أخد يحدق في الصور و كلها تعبر على مأساة جديدة، دون أن يفهم ما تحتويه هذه الأسطر و ليس بيده حيلة، تتبادر إلى ذهنه أحداث العام الماضي من مقتل الأم و كان محمود عبد الغني القاتل الحقيقي، و الهارب مند ذاك العام، فلم يستبعد أن يكون له يد في المحاولة الأخيرة ثم يطرح على نفسه أسئلة:

لماذا يحاول قتلها !؟ ماذا يجري لهذا الرجل !؟

بالرغم من علاقته القديمة مع صديقه، يقرر جمال أن يتخذ خطوة جريئة لوقف هذا القاتل و لمنع حدوث جريمة أخرى، يرفع سماعة الهاتف و يده ترتجف من شدة القلق ليتصل بالشرطة، فيتردد محاولا غلق الهاتف ثم يفكر قليلا و يجمع كل شجاعته ليعاود الاتصال:

ألو، الشرطة؟

يرد عليه الضابط دو الشارب القصير:

نعم تفضل ما بحوزتك؟

يتلعثم قليلا ثم يقول:

لدي معلومات عن هوية القاتل الذي أعرفه منذ عام، ولم أستطع إخباركم خوفا على حياتي، إنه صديقي رئيس القناة الجديدة محمود عبد الغني.

في هذه الأثناء يصل محمود عبد الغني إلى المؤتمر الصحفي ليحمل محفظته، و ينصرف من دون أي استفسار أو اعتذار، ثم يلتحق بالرحلة الأخيرة عائدا إلى وطنه، كأنه يريد إبعاد الشبهات من حوله، و لا يعلم ما ينتظره هناك لأن الشرطة قد أعلنت الخبر، و قامت بحجز منزله وتوقيف صديقه جمال، تمر الأيام و يتم القبض عليه بعد محاولات الفرار المتكررة، ليُحال على القضاء في قضيتين مقتل الأم و محاولة قتل ابنتها، فيما تنتهي فترة نقاهة سيلين و يصلها الخبر بأن القاتل كان مسؤول القناة، الذي كانت تعمل عنده لتصبح توقعاتها صحيحة، كما أصيبت بالاكتئاب عندما سمعت أنها غير قادرة على المشي مجددا، فتشد بيد

عمار ليساعدها في الجلوس على الكرسي المتحرك، و أخته زينب تشاهد هذه التمثيلية التي رأت فيها حقيقة تملأها مشاعر صادقة.

تنفصل الشخصيات و تعود سيلين إلى وطنها، لتحمل بين تقاسيم وجهها كل الأحداث، فتارة تدفعها إلى الأمام لكي تنساها وتارة أخرى إلى الخلف لكي تحترق بها، و تقتل بداخلها تلك القناعة الدفينة منذ أن وقعت عيناها على المقولة، يرهقها تفكيرها و يشعرها بصعوبة في فهمها حين استرجعت القليل من الثقة بنفسها، لتتجه إلى الساحة العمومية على كرسيها المتحرك و في يدها الرواية الأخيرة لهذا المؤلف أو بالأحرى محمود عبد الغني القاتل بعنوان - فضائح الليل-.

تتوسط الشمس كبد السماء، و ترتفع حرارتها في يوم صيفي مشمس، لكن أصبحت كل الفصول متشابهة. ترمي سيلين القبعة على رأسها وتلبس النظارات الجديدة السوداء، ثم تدنو بكرسيها المتحرك قليلا نحو الطاولة، فيشاهدها النادل تفتح المظلة الشمسية لكنها بدون جدوى فيسرع إليها معتذرا، ينظر إليها إشفاقا لحالها لأن لكل شخص احتياجاته ولم يكن حضورها عابرا، بل توالت جلساتها في نفس المكان حتى كادت

تؤلف كل الأيام بذاكرتها وتحفظ كل الوجوه على ظهر القلب، يكتفي بالابتسامة وينصرف إلى الطاولة المقابلة لها ليقدم الطلبيات، وإذا بها تناديه ويبقى من الصعب أن تعوض عن خسارتها قائلة:

أريد كوب عصير الليمون من فضلك.

لن تبكي على عواطف تمردت عليها، بل يتسنى لها أن تأخذ العبرة من هذه الحياة، فلن تتوقع تغيير الأشياء مع مرور العمر إلا أذا أرادت، عندما يستقيم حكمها على كل ما تقع عليه عينها وحده الألم سيدوم واقعيا، يشهد ما حدث لها بالضبط، فعزاؤها الوحيد هو أنها لا تستطيع المشي إلا التنقل على كرسيها، كانت أصغر من أن تعي إعاقة امرأة تواجه نظرات الشفقة إليها، وغالبا ما ترتب أفكارها للمستقبل القادم. ترفع بيدها الرواية التي يختبئ وراءها بؤس اللحظات الشاهقة من العام الماضي، فتتوقف سيارة رمادية اللون من آخر طراز بترقيم أجنبي بمقربة من البستان، ذاك البستان الذي وهبه البستاني حياته ليسقي عند كل صباح وروده، حتى صارت يعشقها كل رجل عاشق و كل امرأة متلهفة.

يدير السائق مرآته الجانبية نحو سيلين، يتابع بعينيه في تناغم حركاتها كلما اقترب الكأس من فمها و هي تشرب عصير الليمون، ففي كل رشفة تقلب معها صفحة من الرواية التي أمامها، و قبل أن تمد يدها مرة أخرى نحو الكأس ينزل من سيارته الفارهة، لم يكن نجم و لكنه ليس عاديا، كان يشبه أحدا ما كان ذات يوم يقترب منها بوردة و ينحني أمامها، إنها لا تهاب الموت بل تحتاج إلى فهم الحياة أكثر. تنهزم مرة أخرى عندما أخذت تسترق النظر إليه، و لا تتوقف فارتفع سقف فضولها و بدأت حالة التفتيش تطال خطواته، حتى انتهى به المطاف واقفا أمامها، تسارعت نبضات قلبها قبل الانطلاق في حفل الكلام على وقعها، أطال الوقوف دون أن ينبس ببنت شفة ثم تكلم أخيرا:

أيمكنني الجلوس لو سمحت؟

فكانت لغته أرقى لترد عليه:

نعم تفضل، هل من شيء تريد قوله؟

تقاوم لهفتها و فضولها في انتظار ما يرد به قائلا:

أعرفك بنفسي أنا رئيس جمعية تتكفل بذوي الاحتياجات الخاصة، لنا مشروع لأصحاب المهن قد يهمك هذا الأمر.

سادت بينهما لحظة من الصمت ثم ردت تقول:

شكرا، هذا لا يهمني وأنا سعيدة جدا بالحديث إليك.

يرد بنبرة لا تخلو من الدعابة في إشارة إلى شخصيته المرحة، التي يريد أن يكسب بها ثقتها ووجد نفسه يواصل التحدث:

متطوع في خدمتك سيدتي ظننتك ستوافقين.

لقد وصل إلى النهاية و لا مخرج له إلا العودة إلى الوراء، تاركا بطاقته على الطاولة و هو يقول:

هذه بطاقتي نحن في انتظارك.

لم ترد على كلامه و لا يمكن لأحد مجاراتها فيما تفكر فيه، قد سئمت أشخاص يقتربون منها ثم يتركون بطاقاتهم، لا لشيء سوى الرأفة بها أو منحها كلمات شفقة تزيد من معاناتها، اليوم تحتفظ لنفسها بما

كانت تتمناه لو يرجع بها الزمن إلى الوراء، و في هذا السن الذي قارب السبعة و العشرين انطفأت الشعلة بين يديها في وسط الرياح القاسية، حين هبت من جميع الاتجاهات. لن يطلبها أحد أو يرضى بحالها، فلا تجد مبرر لأن تتصل به و من اللائق أن تترك كل شيء وراءها في طعم عصير الليمون.

يتمكن المحامي من إقناع المحكمة بتأجيل الحكم النهائي، و بعد مداولات عدة يطعن في قرار المحكمة، هذا المحامي الذي أُوكلت له مهمة الدفاع عن السيد محمود عبد الغني، يبدو واثقا من نفسه ومتحمسا للفوز بهذه القضية، ليس لشيء بل من اجل المال فقد منحه كل ما يملك من ثروته، وفي اليوم المخصص للزيارة يدخل المحامي حاملا في يده وثيقة الطعن، مع الملف الذي يحتوي على شهادة صديقه جمال و بعض الدلائل التي تدينه بالسجن مدى الحياة، يضرب السيد محمود عبد الغني بقبضته على الطاولة متهكما على تماطل المحامي دون مبرر حسب اعتقاده، و عدم إسراعه في فرض محاولاته للتخفيف من عقوبة السجن، و لم لا إخراجه نهائيا ببراءة لكن الطعن له شروط، فيفكر في

بعض الأشخاص ذوي مناصب مرموقة، لعلهم يقدمون له مساعدة عند القاضي و لكن كيف يمكنه الاتصال بهم؟.

يتبادلان أطراف الحديث رغبة في إيجاد الحل الأخير، و قبل نهاية الوقت المحدد للطعن كان يشعر بقلق مستمر، يطلب سيجارة يشعلها ويحرك كرسيه ذات اليمين و ذات الشمال، ثم يهم بإخراج رسالة يريدها أن تصل إلى جمال ثم يأمره قائلا:

خذ هذه الرسالة إلى جمال وأتمنى أن تصل في أقرب وقت ممكن.

كانت هذه الرسالة تحمل أقصر جملة يرددها كلما بلغ به السيل الزبى " أنت لا شيء عندما أريد أنا "، يريد أن يبحث في الأمور ولا يدري انه يعقدها على نفسه، كان جمال أبعد ما يكون على علم بعد إطلاق سراحه، تصله الرسالة في مدة أربعة وعشرين ساعة و صارت حياته في خطر، يقف أمامه المحامي و يقول:

أولا أود أن أتحدث إليك بشأن شهادتك التي قدمتها أثناء محاكمة صديقك، فقط ستكون قادرا على التراجع عنها أثناء المحاكمة القادمة.

تنعقد المحاكمة طيلة اليوم ومند دخول المتهم، وجلوس المدعية على كرسيها المتحرك، الكل يود أن يعرف من هو القاتل الحقيقي، فالقضية أصبحت معقدة أكثر، يحدق المحامي بوجه جمال تتسارع دقات قلبه، وبدأ العرق يتصبب من وجهه ثم انتظر دعوته لتقديم الشهادة، فما كان على السيد محمود عبد الغني إلا أن يكون جاهزا للصدمة، لأن جمال لن يتراجع عن شهادته لصالح سيلين و بدأ يتحدث بكل ثقة قائلا:

ما يجري يا سيدي أن السيد محمود عبد الغني هو القاتل، فقد هددني هذه المرة بمحتوى جاء في رسالته لم أكن أتوقعها.

يتعالى الضجيج ولم يفهم أحدا ما يجري بالقاعة، ليضرب القاضي بمطرقته الخشبية على الطاولة قائلا:

سكوت ! دعونا نستمر في موضوعنا، أريدك يا سيلين أن تخبرنا بكل ما تعرفه عن هذا الرجل؟

تتقدم بكرسيها المتحرك وتجهش بالبكاء قائلة:

لا أظنك تود سماع كل قصتي فإن كان هو القاتل كما يقول صديقه فحكمكم يهمني.

يعتقد أنه استطاع خداعهم لكن بعد المداولة وسماع أقوال المتهم، تم الحكم عليه كما في السابق ليُدان بسجن مدى الحياة، ينهي القاضي المحاكمة ويقترب محمود عبد الغني من وجه سيلين قائلا:

أنت لا شيء عندما أريد أنا.

كلام غير متوقع يسقط كالصاعقة على مسمعها، و يضيق المكان عليها و لم يكن ذلك مريحا تماما، فقد عكر شعورها بالفوز في هذه القضية كأنها سعادة لم تدوم، يفتح فيها جرح عميق و يقطع بكلامه شريانها، فراحت تنزف تعاسة و تلتقط بقايا الأحداث من خلفها بكل صعوبة، و تسقط كل التمثيليات لينزل الستار و ترحل عن خشبة المسرح إلى حين.

لم يخطر ببال عمار أبدا أن يحاول الاتصال أو السؤال عنها، فهو لم يكن مستعدا لذلك حيث فقد تلك اللهفة التي تجذبه نحوها، و صار

مرتبطا بتحضيرات أخته لحفل الزفاف، بعد قبوله عرض زميله في العمل أين التقيا في أحد تنقلاتهم بسيارة الأجرة، و يٌظهر له نية التقرب منه ومصاهرته. كان صديقه فريد ملتزما، خلوقا يدخل إلى قلب من أراد بابتساماته التي لا تفارق محياه، يأتي اليوم الذي يقرر فيه الزواج ليفاجئ السيد عمار و يٌطرب مسمعه و لم يتوان ثانية على ذلك. تتلقى زينب الخبر فتسرع إلى تحضير نفسها و البحث عن اجمل الملابس والإكسسوار، التي تجعلها فائقة الجمال خاصة في هذا السن فقد خاب ظنها من اقتراب احدهم منها أو طلب يدها، وبينما هي تبحث بين مجلات و جرائد مرمية على طاولة احد صالونات التجميل، تقع يدها على جريدة قديمة مرت عليها أسابيع، فجأة تتوقف والصمت يسحبها نحو الشرود محدقة في الصورة الموضوعة على جانب الصفحة، يقابلها عنوان عريض يقرأه الطاعن في السن، كانت الصورة لسيلين أثناء فترة النقاهة بجانب السيد عمار، لم تشأ أن ترجع إلى واقعها بل واصلت الشرود و صاحبة الصالون تتحدث دون جدوى، فلا أحد ينصت إليها إلاّ سيدة كانت تجلس في انتظار إنهاء تزيين شعرها بآخر اللمسات.

تلغي زينب موعد تصفيف الشعر، ثم تحمل حقيبة يدها و تغادر دون أن تبدي أي سبب أو تتلفظ بكلمة واحدة، تحمل الجريدة في أعقاب طريقها و كان الأمر يحيي فجوة منسية، توالت عليها الأشهر ثم تليها أفكار تصنع في ذهنها ملجأ لها، تلتحق بالمنزل و قد أكملت ترتيبها لتنادي على أخيها كمن يريد الإفصاح عن شيء، تضع الجريدة على الطاولة أمامها ثم تقول:

أنظر يا أخي لقد أنساك الزمن، ألم يخطر ببالك أن تتصل بها وتسأل عن حالها؟

ينظر إليها في غرابة من أمره ولم يستطع أن يتجرع ما تقوله ثم يرد عليها:

ماذا دهاك ولماذا أسأل عنها؟ لا يمكنني ذلك.

يحمل الجريدة ويبعد نظره عن أخته ثم يواصل الكلام:

لا أدري إن احتفظت بمعلوماتها أو ربما غيرت رقم هاتفها.

تراه مترددا وراغبا في نفس الوقت، ترد عليه وهي تهم بالمغادرة نحو صالون التجميل مرة أخرى:

فكر في الأمر، ليس هناك مانعا إن اتصلت بها، وأنا أود أن تسأل عن حالها.

بعد نهاية المحاكمة تعود سيلين إلى منزلها تتجرع التعاسة بطعم الفوز، غير راضية بحالها رافضة الاستسلام دفعة واحدة، لأن غايتها ليس الخروج من مضمار السباق مبكرا، بل تريد الغوص أكثر في أعماق تلك الكلمات مهما بلغت أقصى الحدود بحثا عنها، و لم يبق للموضوع الذي شغل بالها أهمية في حياتها حين اكتشفت أن القاتل هو صاحب الرواية، فكان يجب عليها البحث عن عمل يساعدها حسب حالتها ولا تمانع إن اشتغلت كمساعدة أطفال بدار الأيتام بعيدة عن ضجيج الصحافة و كاميراتها، لم تبخل على نفسها حين تتابع البحث في كل مرة، و تقطع مسافات بعيدة على كرسيها المتحرك من أجل العثور على هذا العمل، تأبى أن تتجاوز حدود صبرها وتعيد الثقة إلى نفسها، كما تُبعدها عن فنها الأبدي الذي رسخ في ذاكرتها ساعة من الجمر، لا تخلو من رماد غسل

هدوء ملامحها، تتحمل نظرات الشفقة و ترفع رأسها في حضرة مديرة دار الأيتام السيدة مروة كما كان مكتوب في اللوحة الموجودة على المكتب قائلة في استئذان:

مرحبا سيدتي المديرة، إني أبحث عن وظيفة لديكم ولا أمانع إن كنت مساعدة أطفال.

مساعدة على كرسي متحرك ما الفائدة من خدماتها، و كيف سيمكنها التأقلم مع هذا العمل الجديد، الذي يتطلب الوقوف بجانب براءة تحتاج إلى الدعم أكثر منها و لساعات طويلة، كان حوار داخلي بين المديرة مروة و نفسها حول عرض هذه المحتاجة، ثم توافق على طلبها و تمنحها الشروط للإمضاء عليها، تختار طريقا به شروط لا تمكن حياد عنها ثم تشكرها على منحها فرصة لإثبات ذاتها، تنصرف إلى ساحة الدار كان منظرها يوحي بأنها كانت مركز للمقاومة في القديم أو ما شابه ذلك، لون جدرانها اختفى و انتشرت بين شقوقه طحالب من شدة الرطوبة التي تحتويها، و أشجار عمرت طويلا تنحي للزوال، كانت دار الأيتام بعيدة عن قلب المدينة ساعتين مشيا على كرسيها المتحرك.

تتمهل قليلا ثم راحت تراقب أرجاء تلك الساحة، ليشد نظرها مجوعة من الأطفال يرتدون نفس اللباس و بنفس اللون، كان عددهم سبعة لا يتجاوز سنهم خمس سنوات، يقفون في صف واحد بأيديهم كتب كأنها قصص من الحجم الصغير، تهز برأسها واثقة أنها وجدت فتيل نور يعيد لها بسمتها و ينسيها ماضيها ثم تهمهم قائلة:

لكن المكان بارد جدا وهو قديم لا يصلح إلا للسياحة، وتساءلت ألم يجدون مكانا آخر غير هذا؟

تلمح من كلامها أنها تخاف على مثل هؤلاء الأطفال، رغبة منها في تحسين وضعهم، فبالرغم من صغر سنهم إلا انهم يقاومون الظروف القاسية هنا، ولا يملكون ملجأ آخر يذهبون إليه، لقد وجدوا مساعدة تعيسة الحظ لن تشغل بالها مرة أخرى بالتعقيدات التي تبعتها وأتعبتها، وحتى تكون دقيقة في الموعد اشترت لنفسها مذكرة صغيرة يظهر عليها مخطط الأشهر والأيام. وفي طريق عودتها إلى المنزل تمنى نفسها بادخار المال من أجل مساعدة هؤلاء الأطفال، ثم ترحل من دون انتباه إلى صورة السيد محمود عبد الغني، في قمة الغضب تحكم قبضة يدها على

مقبض الكرسي وتتوقف برهة ولم تبال بإشارة المرور إن كانت خضراء أو حمراء، كانت حياتها على المحك لولا توقف السائق وإطلاق أبواق السيارات من كل جهة.

في كل صباح تؤشر في مذكرتها تاريخ اليوم، الذي تباشر فيه العمل إلى حين نهاية الأسبوع وهكذا تعيد الكرة خلال الأسابيع، لا تستحق الهزيمة مرة أخرى كل ما تحتاجه هو التكفل بهؤلاء الأطفال حسب طاقتها، التي مازالت تكمن بداخلها. فقد اختارت لها مديرة دار الأيتام غرفة بالطابق الأرضي لكي تسهل عليها الحركة، ولم تتوقف سيلين عن الابتسام في وجوههم والاقتراب منهم أكثر في جو لطيف يساعدها على كسب قلوبهم الصغيرة، فعند دخولها تنادي بأسمائهم، وتقدم بعضا من الشكولاتة تشتريها في طريقها، لقد اعتادوا على تقبيلها ومحاولة مساعدتها في تحريك الكرسي، وأصبح لكل طفل طريقته خاصة في تقديم التحية لها، وكل مرة يتسابقون إليها وفي يدهم ما تعلموا رسمه كانت خربشات صبيانية لها معان عميقة تعكس مشاعرهم البريئة، وبلغة عفوية تقول:

كم هو ثمين حين نراقب براءة اختلفت أساليبهم وإدراكاتهم اتجاه الواقع، نحن من ينتابنا الفشل وينتشر فينا فلا نشعر بمبتغانا وهو يكبر، تهتز مشاعرنا كلما نظرنا إلى الخلف وتجاهلنا براءة سنرحل عنها يوما ما.

ثم اتبعت قائلة:

وكم هو جميل حين نستنشق عطرها بالقرب منا، يذوب فينا كل بعد تحتويه أيامنا، فقلَّ ما نفعله لا ترضى به رغباتنا حين يستهويها الانتصار دائما، نرافع في جلسات تملأها الفوضى، والانكسار لا يعنينا.

في فترة الاستراحة بينما كانوا يلعبون في تلك الساحة المليئة بالحجارة و الحفر الصغيرة، لم ينتبه أحدهم و تعثر رجله فوق حجر صغير ليلتوي قدمه ساقطا على الأرض ممسكا بها، تتوجه نحوه مسرعة على كرسيها لتساعده على الوقوف و تقديم العلاج له، ولم يكن باستطاعتها فعل أي شيء له فانهمرت بالبكاء لحاله و حالها، تتحمل بشجاعة لترفعه إلى حجرها و تنطلق إلى العيادة أين تتم معاينته، و لما وصلت نظر إليها الطبيب بالاعتزاز لما تقوم به رغم عجزها، ثم يأمرها بالانتظار إلى وقت

الانتهاء من تخفيف الآلام وتضميد قدمه، فتختلي بنفسها عند مدخل الباب، تهمس مساعدات الطبيب و هن يحضرن لوازم الدواء، و يتساءلن عن سبب قبول طلب هذه السيدة للعمل في ظروف كهذه، ما كان أحوج إليه عاملة في صحة كاملة فتجيب إحداهن بصوت لا يكاد يسمع صوتها:

ربما تخفي وراءها حكاية.

ثم خرجت نحو سيلين لتتمعن أكثر في وجهها، و تتطلع في ملامحها ربما تكون قد صادفت مثلها في مكان ما، لم تهتم سيلين لمثل هذه التصرفات و تابعت الانتظار إلى حين أنهى الطبيب علاج الطفل، فأخذته معها و أكملت العمل، و بعد الانتهاء وجبة العشاء وجهت الأطفال نحو مراقدهم، و انتظرت إلى أن خفتت أصواتهم و أطفأت الأنوار، ثم تجلس في زاوية من البهو المكتئب لم يبق من حولها إلا ضوء خافت، تريد الرحيل فيه بعيدا بأفكارها و تتذكر لحظة وقوع الطفل، فلم تشأ إلا أن ترمي بها في مذكرتها و مع نهاية كل جملة تعيد قراءتها، تسرقها الثواني خفية لينحني رأسها قليلا و تنام على كرسيها المتحرك. يحاكي قساوة الأيام التي مرة عليها.

يتقدم العروسان زينب و فريد نحو القاعة الكبيرة، زاهية الألوان عند مدخلها، و الطاولات المرتبة محجوزة لكل عائلة مدعوة، ترى العائلات يتقدمون بانتظام نحوهم، منهم من يسرق الوقت القليل في ضحك و عناق كما تعانق النحل الأزهار، و ما زاد الوضع جمالا تلك الأضواء التي تتراقص مع موسيقى خفيفة استحسنها الجميع و راحوا يتراقصون معها، أبرقت عينا السيد عمار بشيء من الفرح لما تلقى خبر، وهو يحمل في يده رسالة قبول أوصلها جاره منذ حين، رسالة قبول في مؤسسة الأشغال الكبرى التي تضم أجانب من مختلف الجنسيات، طالما كان يحلم بالعمل كمهندس معماري و تنتهي معاناته أخيرا مع سيارة أجرة، تنظر إليه أخته فيهمس بأذنها:

تعالي أحتاجك في أمر مهم.

تهمس بدورها في أذن العريس تطلبه الإذن بالانصراف:

أخي يحتاجني بالطابق السفلي سأعود في الحال.

تجمع ثوبها كذيل حصان و تنزل الأدراج مسرعة، و من دون انتباه يشتبك حداءها بقطعة القماش في مؤخرة الفستان، لتسقط بقوة متأرجحة إلى نهاية الأدراج، تلفظ زينب أنفاسها الأخيرة بينما أخوها يريد إخبارها، في برهة من الزمن يتحول الحفل الزفاف إلى مأتم، تراه يسأل نفسه كيف يتوقع أن يكمل حياته من دون أخته لتقاسمه أقسى الذكريات و أجملها، ثم يترفع عن الانهماك في التفكير و يقول:

لا لقتل الوقت.

أفشله تفكير آخر كان يدور حول سيلين، وهو يحدق في وجه صهره الذي لم تكتمل فرحته بعد، كان وجهه يشوبه الحزن و الألم، و قلب يتقطع لفراق محبوبته، التي تطاول عليها الزمان إلى أن حلت بالعقد الثالث، يفرح لفرحها و يحزن لحزنها، ثم يبكي لفراقها، يتفرقان العصفوران كأول يوم يلتقيان فيه، يقترب السيد عمار و يعانقه في ساعة وداع قائلا:

ما عليك إلا أن تواصل عملك، واصبر صبرا جميلا.

ثم يتابع كلامه:

سأتجه إلى عملي الجديد لقد وصلتني الأخبار منذ ثلاثة أيام.

يطأطأ السيد فريد رأسه ثم يرد عليه:

لا بد أن نصبر لنوائب الحياة، فلا ندري بأي أرض سننتهي.

يمر أسبوع كاملا ليحمل حقائبه دون تردد، وينطلق نحو عمله الجديد.

تلقي سيلين بوميض ابتساماتها على الأطفال كالنجوم التي تسطع في تلك الليالي، و تنتهي من كتابة مقال تصف فيه أحوال دار الأيتام، لتبادلها المديرة مروة بصدر رحب فهذا ما كانت تتمناه. تتحرك العناوين على الصحف في كل أنحاء البلاد، و ينشر المقال متبوعا بصور واقعية أحسنت اختيارها، تبدو كلعبة تمسك طرفيها بأصابع يديها لا تريد الاحتفاظ بها لنفسها، بل تدعو الآخرين للتمعن حينما تسقط الابتسامة و لا يلتقطها أحد، تحضر نفسها لحفلة نهاية الموسم، لتجد نفسها بين أهازيج و أصوات الأطفال، راحت تتراقص على أنغام هادئة.

تقترب سيلين من السيدة مروة لتدعوها إلى الجلوس حول طاولة أعدتها بنفسها بذلك الشجن المتنكر في طعم عصير الليمون، تسابق الزمن من أجل فض هذا الشجون، و العودة إلى سكتها بعد مخاضها الأخير لتولد من جديد. تعلن المديرة إعادة ترميم الدار و تتشاور مع سيلين حول طريقة سير الأعمال، حتى تنوب عنها في بعض التحضيرات، فلم تتوان يوما عن الوقوف بجانب هؤلاء الأطفال في إعادة الأمل لوجوههم، ثم تتحرك ببطء نحو شجرة بجانب الجدار كلها يافعة مخضرة اللون، فتسرح بتفكيرها عند كل حدث وقع لها مستحضرة تلك المقولة، ثم ترحل عند كل مفردة تقرأها عليها تجد مرادفا لها من هذه الحياة التي تعيشها، وتنسى أنها في حفلة نهاية السنة.

تنظر إليها المديرة في تأمل من بعيد، و تضع ما كانت تحمله من يدها على الطاولة مقتنعة، أن في الحياة مواقف كثيرة لا يستطيع أحد اختيار ما يكون عليه إلا من خلال سعيه و اجتهاده، ثم تدنو منها رويدا رويدا وربتت على كتفها، لتوقظ فيها الواقع الملموس و ما ينتظرها من تحضيرات، و ملأ بعض استمارات الأطفال، تعود أدراجها إلى حيث

الطاولة فترى على وجه سيلين ابتسامة لا تدري إن كانت ابتسامة أمل، أم هي مجرد ابتسامة ألم ما بعد المخاض.

و في ليلة ساد الصمت خارجها جلست منكبة على وجهها تملأ الاستمارات الخاصة بالأطفال، بين حين إلى آخر ترفع رأسها لأخذ قسطا من الراحة، موجهة نظرها ومنصتة إلى ما يقال من أخبار، تمر تحتها عناوين في شريط طويل أسفل الشاشة دون أن تكترث لها، يجذب مسمعها خبر الفوضى التي حدثت في السجن خلال عدة أيام، أخذت تنصت بشدة كان الأمر يعنيها ولكنها كانت آخر من يعلم، تم تظهر قائمة صور مرتبة يظهر على رأسها السيد محمود عبد الغني وكانت ملامحه قد تغيرت قليلا، قيل انه اشعل فتيل المشاحنات الكلامية مع بعض السجناء، و لم تدم طويلا لتتحول إلى صراع و تخريب، تتبعه ملتقطات تبرز الخسائر التي طالت السجن. تتسع حدقة عيناها في دهشة وتسقط الاستمارات من يدها، تحاول تجنب التفكير لكن استحال عليها ذلك، فتترسم صورته في ذهنها مجددا معلنة خوفا تحتويه شجاعة لمواصلة

التحضيرات من أجل ترميم دار الأيتام، ربما تدرك معنى كلمة " الفرار" لينبثق الصمت من شفاهها قائلة:

لقد فر، لقد فر لكن إلى أين يتجه الآن؟

إنها لا تريد العودة إلى فنونها القديمة، ولا تريد أن تتعلم فن إخفاء التفكير واستطاعت أن تمنح لنفسها لحظة من صمت يعاودها بين فينة وأخرى، ويبقى الجميع يجهل ما سيقدم عليه هذا القاتل حيث يكون كل شيء بلا مبرر، تطفئ التلفاز في حسرة كبيرة، وتنهي ملئ الاستمارات والأمل يحدوها للتخلص من هذه الأزمة المتواصلة، تقترب من رف وضعت عليه كتب اختلفت أحجامها و أوراق قديمة لتسحب نموذجا من بينها، كان يشبه تلك الاستمارة التي تفرغت منها للتو، كان النموذج عبارة عن أسئلة مفتوحة لتختار صياغة مناسبة لتحرير التقرير الأخير، تباشر كتابته و بعد لحظة تلمح ورقة يطل جزؤها الأبيض الصغير بين حشد من أوراق كتاب اختلى بنفسه أمام مزهرية تزهو بألوان الورد الموضوعة فيها، تختصر المسافة وتسحبها من دون رأفة إذا بها ورقة ممزقة من كتاب طويت على جزئيين، وعند قراتها تتأكد أنها من كتابها المفضل،

تنتشر الكلمات و تحاصرها بلغة تعرفها لكن يبقى ذلك المعنى غير مفهوم، إنها المقولة التي ألهمتها مند عامين، كان القدر يريد منهما أن يجتمعا عند ولادة جديدة و في صمت مكسور تتخلله عبرات تنهمر على مقلتيها تتساءل:

كيف وصلت الورقة إلى ذلك الكتاب !؟.

من وضعها فيه؟ من المحتمل أن يكون هو لأن أمي لا تحب قراءة الروايات.

إشارة منها على أن الفاعل قد يكون السيد محمود عبد الغني، تعود المقولة إلى أحضانها بعد أن تمزق كتابها بين أمواج البحر مع الأحداث التي توالت عليها، تعود في ورقة واحدة لا تعلم من وضعها هناك لتهم بإخفائها داخل حقيبة يدها، فمن الواضح أنها تبدل مجهودا يتجلى في الحماس الذي يدفعها نحو فهم تلك المعاني مجددا، تدق الساعة العاشرة ليلا بصوت عقاربها الناعم الخفيف لتركن إلى فراشها، وبدأ ضغطها ينخفض إلى مستواه العادي فتغمض، عيونها بنوع من السفر عبر زمن قريب تجمع فيه الوقائع التي أثقلت كاهلها بصورة مرتبة، داهمها

النعاس ليعم صمت رهيب أرجاء الغرفة إلى أن بسط الصباح ضياءه، وتسللت نسماته عبر النافدة نسيت أن تغلق جزء منها.

تستيقظ في قلق لأن الوقت داهمها، ونسيت أن تلحق مبكرا لحضور لقاء شامل يحضر فيه كل العمال من أجل وضع التفاصيل الأخيرة، تأخذ من الزمن ساعتين أو أكثر للوصول فتجد الكل قد انصرف وبقيت المديرة مروة ترقبها، تعتذر سيلين تأخرها و تقدم تفسيرا مقنعا عن سبب التأخر، ثم تتبعها إلى مكتبها حتى يتسنى لها اخد رقم هاتف السيد رمزي، كما جاء على لسان المديرة و تقصد به هذا أحد مدراء مؤسسة ما، ثم تطلب منها الاتصال به في أقرب وقت ممكن لكي يكون على استعداد ليبد أ الترميمات، لم يكن رمزي إلا أحد أقرباء مروة استطاع من خلال مساره المهني أن ينشأ مؤسسة أشغال كبرى خاصة به، وفضل أن يكون مركزها خارج البلاد و لكن في عضون سنوات قليلة تمكن أيضا من توسيع عملها من خلال فروع أنشأها هنا بالداخل.

قبل أن تتصل سيلين بيومين فقط، يقرأ مدير مؤسسة الأشغال الخبر المعلن عنه بالجريدة حول الوضع الذي يعيشه الأطفال بدار الأيتام،

فيقرر السفر لزيارة أحد أقاربه ومن تم التوجه نحو عائلة مروة ليسأل عن أحوالهم، يترك بعض الأشغال للمهندس السيد عمار ليتولاها نيابة عنه ريثما يعود، ينصرفا الاثنين وهما يتبدلان الحديث إلى غاية ركوب السيد رمزي سيارة الأجرة متجها نحو المطار، لم يكن السائق إلا السيد فريد الذي لم تدم فرحته طويلا فقد كان على وشك الزواج من زينب أخت عمار، إلا أنها رحلت عنه في ثوبها الأبيض بعد سقوطها المفاجئ لتلفظ أنفاسها الأخيرة أمام أعين المدعوين، ينطلق الحديث بينهما بعد مسافة قصيرة كل واحد يرمي بما يعتريه و يوقظ بداخله لوعة الشوق إلى لقاء أحبائه، يتكأ إلى رمزي إلى الخلف و هو يسأله:

ما لي أراك مكتئبا؟

يرد عليه وقد أبطئ سرعة السيارة:

آه، لو تعلم بحالي لما سألتني.

ثم يجمع ملامحه في لغة الدهشة ويتابع:

هذه الحياة تواجهنا ونواجه عقباتها، لكن في بعض الأحيان تفوز علينا تخطف منا من نرضى به حبيبا لنا.

يتأكد رمزي أنه يشبهه تماما ولا فرق بينهما فيقاطعه:

حالتك تشبهني لا تيأس، إنها تقلبات الحياة كما قلت.

بعد هذه المتاهة التي غاص فيها بأسئلتهما، يرفع معدل السرعة قليلا وفجأة يقابلهم سائق متهور أو تلاحقه الشرطة، يتجاوز السيارات في لمح البصر ويشل الحركة هنا وهناك، أراد السيد فريد أن يتجنب سرعته إلى الجهة اليمين فيفقد السيطرة على حركة السيارة، لتنزلق عجلاتها من شدة الضغط على المكابح و تخرج عن مسارها بقوة نحو عمود كهربائي، يتطاير الزجاج الأمامي الملطخ بالدماء وتندلع النيران من محرك السيارة، من دون تردد يسرع المارة إلى إخراجهم وإبعادهم عن المكان ثم أخذ أحدهم يتصل بالإسعاف، يصابان إصابة خطيرة فينقلان على جناح السرعة إلى المستشفى.

يتفقد ضابط الشرطة وثائقهم ليتصل برقم هاتف مؤسسة الأشغال، يرد السيد عمار على مكالمته، ومن شدة الصدمة ينشر الخبر بسرعة البرق لتعم حالة اضطراب مست كل العمال. في هذه الأثناء يركب سيارة السيد رمزي ويلحق مباشرة بالمستشفى، أين وجد حشد من الصحفيين والأصدقاء كما وصلت عائلاتهم، ثم ينطلق بينهم يصنع لنفسه طريقا إلى أن وصل إلى غرفتهما، يندهش لمّا يرى السيد فريد في وضع حرج لا يدري أنه سينجو أم لا، يدير ظهره إلى الباب ثم يهمهم:

هذه هي الحياة، ليس بيدنا حيلة.

يدرك عمار أن رحلة المدير ستأجل ليتولى زمام الأمور بنفسه ويطلب منهم الوقوف إلى جانبهم، يعود أدراجه نحو مكتب المدير ليبحث بين ملفاته عن عنوان ومكان دار الأيتام التي تحدثا عنها، ثم يسجل المعلومات لديه ويغادر بعد ساعات من وقوع الحادث مسافرا إلى خارج البلاد نحو دار الأيتام.

يصل إلى الساحة العمومية التي أمضى فيها أياما كبائع جرائد، ثم بدأ يحدق في الطاولات المرتبة ويمعن النظر في الطاولة التي اعتاد الجلوس فيها تفوح منها رائحة عصير الليمون، لم ينزعج أو يحرك ساكنا كان الدهر أتى على ذاكرته لمّا أصبح مهندس معماري بزي يوحي انه رجل أعمال، يلقي ببعض الأسئلة على النادل الذي لم يتذكره أيضا قائلا:

هل باستطاعتك أن تدلني على هذا العنوان؟

يقرأ العنوان ثم ينظر إليه ويجيبه:

المكان ليس بعيد جدا، أولا أسلك هذا الاتجاه إلى غاية المنعطف الأخير، ثانيا استدر يسارا عند تلك اللافتة واتجه إلى مفترق الطرق الرئيسي، ثالثا أعبر الطريق مباشرة إلى نهاية الشارع الضيق في الطرف الآخر من المدينة، وأخيرا ستجد لافتة تشير إلى دار الأيتام. تملكه الفضول ليسأله بدوره:

وما هو عملك هناك؟

يعتذر منه السيد عمار لأن هذا الأمر لا يخصه قائلا:

اعتذر على إزعاجك وشكرا لك على توجيهي.

ثم يغادر بلا انتظار.

سيلين لا تعرف أن المرايا تتعب من كثرة الوجوه، و بالرغم من تعبها فقد أدمنت قراءة تلك المقولة، في بعض الأحيان تحقد على كاتبها الذي يطارد أحلامها، وأحيانا أخرى تجد كلماته صادقة. فلم تصدق أنها قبلتها بكل سهولة وأنها تغرق فيها كلما التهبت النار من حولها، لأنها بكل بساطة لا تملك جوابا على ذلك، تحاول الانتصار على تفكيرها الذي يأخذها إليه عنوة لكن من دون جدوى، هي والمدينة شيء واحد فالمدينة يريد أن يختبأ فيها وفي أي مكان يستطيع كما يختبأ في مخيلتها بكل الأحداث رافضا الاستسلام، تواصل الشرطة البحث عنه وقد رسمت وجهه في كل مركز تفتيش، وفي كل شارع من شوارع هذه المدينة إلى أن تم القبض عليه متنكرا في إحدى الشوارع الهادئة بين مجموعة من المتسكعين قبل أن يصل من مبتغاه الأخير، يقاوم لشدة إحكام القبضة عليه، و ينظر من خلف شباك سيارة الشرطة مشددة الحراسة، هذه المرة قد انتهى مسلسله بحكم الإعدام بعدما قتل سجين آخر السجن الجديد.

يواصل عمار سيره محاورا نفسه بنظرات خاطفة، لكل وجه يمر به ولكل بناية يقف عندها، كلما يقترب أكثر يترك وراءه ضجيج المدينة وحركات المارة، لتتجلي أمامه اللافتة انتصبت في الأعلى على بعد مترين فقط مكتوب عليها دار الأيتام، كتبت باللون الأبيض دو خلفية سوداء تقشرت لونها لمعاناتها مع الظروف القاهرة التي توالت عليها كل سنة، يقف أمام المدخل الرئيسي للدار وقبل أن يهم بالدخول تصل المديرة بسيارتها، ترحب به قائلة:

تفضل سيدي، هل تحتاج إلى خدمة؟

يلتفت يمينا ويسارا ثم يرد عليها:

ربما أنا في المكان الصحيح، ادعى السيد عمار من مؤسسة الأشغال الكبرى التابعة لمديرها السيد رمزي.......

تقاطعه قبل أن يكمل كلامه:

أهلا بك أنت في المكان الصحيح، إن السيد رمزي هو أحد أقربائي كيف حاله؟

يصمت قليلا وقد تغيرت ملامح وجهه، وتسارعت دقات قلبه لأنه لا يدري من أين سيبدأ الحديث قائلا:

للأسف إنه في المستشفى، لقد وقع له حادث مرور خطير منذ يومين وأتمنى أن ينجو، لهذا تولت أمر مجيئه لأقيّم الأوضاع هنا.

تتنهد لأسفها عليه وينحني رأسها ثم تأمره بصوت حزين:

انتظر هنا سترافقك مساعدة الأطفال

لم تشأ أن تكثر عليه فقد حز في قلبها حزن عميق اتجاه السيد رمزي، راحت تجري اتصالاتها بأهله لتسألهم عن حاله، وتطمئن عليه لأنه تعذّر عليها السفر لكثرة الأعمال التي لا تنتهي، يقترب من الجدران الآيلة للسقوط والساحة المحتاجة إلى بلاط يساعد الأطفال على ممارسة ألعابهم، ثم يمد يده إلى غصن جدع الشجرة الضخمة التي عمرت طويلا، سرح بتفكيره هنيهة فإذا بسيلين تكلمه من الخلف تدعوه إلى الجلوس:

تفضل سيدي بالجلوس، كل الأوراق جاهزة لبدأ العمل.

يستدير على حين غرة فينكفأ داخل صمته واضعا يده على جبينه، ينظرا مليا كأن كل شيء يشتعل في عينيه ولم يعد قادرا على مواجهة حرقتها، وتلك الرغبة لمعانقتها لم يستطع لجمها، فمد يديه إليها فاتحا أياها لمعانقتها وجثى أمامها معبر لها على مشاعر الاشتياق، تحت دهشة العيون التي تربكها الأسئلة قائلا:

كيف حالك؟ أأنت بخير؟ ماذا تفعلين هنا؟

تمنعه من الاقتراب وتغلق عليه السبيل، تنزعج من تصرفه ولكن سرعان ما تمالكت انزعاجها، فلم تمانع إن أسرع في الحديث حتى ينصرف لأنها لا تود أن يطيل الكلام قائلة:

أنا بخير، تفضل الأوراق وليس لدي ما أقوله، كان على الأقل لو اتصلت بي وسألت عن حالي.

لم تدع له مجالا للرد وأخدت تقضم أضافرها، لكي تتوصل إلى سبب مقنع جاء به ثم تابعت تسأل نفسها:

ما سبب مجيئه؟ وكيف حصل على العنوان؟

ثم تهمهم بصوت خافت:

كيف لنا أن نكتشف أنفسنا في وجوه الآخرين لكي نعيش شغفنا بصخب.

ترفع غشاوة أحاطت على قلبها طويلا ليتضح أمامها مطامعه، و تهيئ له مشاعرها في حلتها الجديدة بعدما انجرفت و حادت عن الطريق في أول لقاء معه، فتعمدت إلى إظهارها أمامه دون تسرع، كانت يومها لا تتريث في الغوص نحو القاع حتى أصابها ما هو عليه، يجثم مضطربا يتفقد تلك الأوراق ثم يرسل نظرات تتبع حركة عجلات الكرسي، لن تلتفت وراءها فهي تبتعد عنه في ذاك البهو الطويل لتنادي عليها المديرة و تدعوها إلى مكتبها، وفي انفراد مدة من الزمن عبر حزنها المتطاير، تريد أن تجمعه في قرار أخير حول تأجيل بعض الأشغال، و كان هذا من اجل السفر لزيارة السيد رمزي بالمستشفى، و كم تحب لو تشاركها لملمة هذا الشجن، حيث أقنعت في الأخير وضع كل شيء جانبا و مرافقتها إلى وجهتها، سيلين يقتلها الظمأ إلى تغيير الأجواء و الاعتناء بمظهرها، و يكفي أن تصعد بأملها الوحيد نحو فهم جوهر تلك المقولة، و تترك الأفكار العكرة تتوارى من حياتها، و تغلق بابا منكسرا لن يفتح مرة أخرى.

تزيل انفعالاتها السائدة في كل كلمة تقولها، وهي تجلس بجانب المديرة على متن طائرة، ترتب احتمالاتها حول السيد رمزي وتدخل معه في صورة شبه حقيقية، لا يمكن تفسيرها بكلام مصطنع أو بصراع داخلي تجهل عادات الوصف، بل لا تستطيع وصفه ولا تعرف إلا القليل عنه في شخصيته كمدير مؤسسة الإشغال الكبرى، ينتهي وصفها لترمي على السيدة مروة سؤالا يافعا قائلة:

هل أخبروك عن حالته بالتدقيق؟

تستطيع موافقتها على هذا السؤال بملامح حزينة تلاحقها، ثم ترد عليها:

إن حالته خطيرة جدا، وأتمنى أن يستعيد عافيته في أقرب وقت ممكن.

تدخل سيلين يدها في الحقيبة الصغيرة باحثة عن تلك الورقة التي كتبت عليها تلك المقولة، لتمتزج بذاك الوصف بعيدا عن شخصياتها التي اعتادت عليهم، وفضلا عن ذلك إن كان وصفها صحيحا فهو موجود في أحدهم ثم تأملت فيها قائلة:

ليتني أفهم جوهر هذه الكلمات وما يقصده المؤلف!؟

تجاهلت طرح الأسئلة وقررت ألا تعود إليها، لأنها تعتقد أن كل الأسئلة لن تجيب على ما تعنيه هذه المقولة التي كتبت بسر غامض، تتوقف الطائرة بالمطار ويستعدان إلى ركوب سيارة أجرة مباشرة إلى المستشفى، وعند نزولهما أمامه يتضح لها أن المكان نفسه عندما أجريت لها العملية، وفي ظرف غير متوقع تلتقي بالطبيب الذي وافق على العملية متجها نحو عملية أخرى، فلمست في عيناه أنه يتذكرها وراح يرحب بها مستفسرا عن حالتها قائلا:

مرحبا، كيف حالك؟ يا ترى من جاء بك إلى هنا؟

انتزعت نفسها من صمت قد يكشف ما يدور بذهنها ثم ترد عليه:

إني في زيارة أحد أقارب المدير مروة.

تتملكها سعادة مبهمة دون أن تعرف كيف تصغي إليها، ثم يسرعان إلى حيث يقبع السيد رمزي في فراشة وقد أوصل دراعة بكيس الأكسجين، تنظر إليه سيلين بشفقة كبيرة من خلف الزجاج لأنه ممنوع

الدخول، وأخدت تهدئ السيدة مروة وتروي لها حالتها المشابهة له ثم يجلسان قليلا، يلتحق الطبيب مرة أخرى ليجداهما في حزن يمزق قلباهما فيشجعهم قائلا:

لا تيأسوا إن هناك أمل في الشفاء، بالرغم من فقدانه الكثير من الدم إلا أننا عوضنا ذلك بسرعة، نحن بحاجة إلى شجاعتكما.

تراه واقفا منتصب القامة بمئزره الأبيض الناصع، ولحيته التي استوت مع شاربه يحدثها برواء غير مستعجل، يفكر في لغة سيعرضها عليها متجنبا الإصرار، يحاول كل مرة أن ينشر على مسمعها فكرة إعادة التأهيل الحركي كما يثني على الفكرة من أولها، ثم يعدد لها كل المرضى الذين مروا من هنا في حالات متشابهة قد تمكنوا من استعادة عافيتهم، تنظر إليها السيدة مروة وتشعل فيها الحماس والرغبة في الخضوع للجلسات قائلة:

يمكنك تجاوز هذه الجلسات فأنت امرأة شجاعة، لا تفكري في الماضي أو في عملك سأكون دائما على الاتصال بك.

تنفض عن نفسها كلمات هاربة من رفضها الذي لم تتأكد منه بعد، لم تنقض ساعة الزيارة إلا وترفع رأسها استعداد لفكرته ثم ترد عليهما:

حسنا سأقبل الفكرة ولكن كم ستدوم جلسات التأهيل؟

يبتسم الطبيب من طرف شفتيه مجيبا:

لن تطول المدة إذا كنت على قدر شجاعتك وتعاونت معنا، إن في المستشفى أطباء أكفاء يشهد الجميع لهم.

تقاطعهم المديرة مروة قائلة:

لقد انقضت ساعة الزيارة، اسمعيني يا سيلين إن كنت ترغبين في الجلسات حقا، سأوصي عائلة السيد رمزي لزيارتك من حين إلى آخر.

لن تبالغ في الرد لأنها موافقة على ذلك لتطلب من الطبيب حجز موعدها، ثم يقتربان من غرفة السيد رمزي لإلقاء نظرة أخيرة عليه ويتوجهان إلى منزل عائلته، و في طريقها إلى هناك ظلت سيلين صامتة تعيد شريط وقائعها الذي مازال يمر من حين إلى آخر، فكان كافيا لإيقاظ

الأعماق الدفينة لتعبر بها نحو أسئلة جديدة، تستقبلهم والدة رمزي في جو حزين يعم المنزل لتقاسمهم كلماتهم البسيطة تارة و المليئة بالشجون تارة أخرى، و في اليوم الموالي تغادر المديرة مروة إلى بلدها لمواصلة سير أشغال الترميم مع السيد عمار، فيما تبقى سيلين تواظب على جلسات التأهيل الحركي على يد طبيب مختص.

في المستشفى، أين تمر الأيام على السيد رمزي و هو يستعيد عافيته، تراقبه سيلين دقائق معدودة كلما حلت في ذلك البهو، فتقرأ ضعفها فيه قبل أن تباشر جلساتها، و تعيد مشاعرها في لوحة تفتقدها بعيدة عن دار الأيتام، تقف لتمد الخطوات و تتأرجح واقفة بلا كرسيها المتحرك، و هي تنظم وصفا دقيقا توصف به أيامها ثم تجلس على الكرسي مرة أخرى، و لم تنس زياراتها المتكررة للسيد رمزي كلما سنحت لها الفرصة لتحدق فيه عن قرب، الدخول مسموح هذا ما اعلن عنه الطبيب لتقترب منه أكثر، و فجأة يفتح عينه عليها ثم يدير رأسه يمينا، كأنه يفكر في هذه الشخصية التي تلازمه أكثر من دقيقة، و بعدها يستقيم لتدخل عليه طبيبة تناوله الدواء في منظر رومنسي، وترفع يده العاجزة عن الحركة،

تشك أنها أضعف أمام النساء الحسناوات لأنها عاجزة عن المشي بطريقة صحيحة، و ما كان يدور في رأسها أنها طلبت من الطبيبة بأن تقوم بدورها في إعطاءه الدواء، رفعت يدها و تراقصت عيناها و هي تقترب منه إلى أن صارت تناوله بيديها، تلك اليدين المكسورتين والراغبتين في احتضانه و لو مرة واحدة لتدق طعم السعادة.

يقف الطبيب متعجبا لأمر هذه السيدة، كان تعجبه يفضحه فضحا واضحا، ثم ينادي عليها لكي تسرع نحو جلستها الأخيرة بهذا المستشفى، في هذه الأثناء تخرج الورقة الهاربة من كتابها المفضل، ومن دون تردد تحدق في عينيه وهي تضعها بين قبضته التي مازالت ضعيفة، يحاول إمساكها بأطراف أصابعه التي تتحرك ببطيء شديد، ولم تنتهي عند هذا الحد بل وقفت بقوة من كرسيها وهمست في أدنه قائلة:

التعاسة جميلة حين تليها سعادة تدوم.

تعود إلى كرسيها مرة أخرى و تنطلق نحو الطبيب ويغلق الباب، تدخل الطبيبة التي وصلت للتو فتساعده على رفع رأسه قليلا، لكن فات

الأوان لقد اختفت عن الأنظار لتعود إلى وطنها و الأمل لا يزال قائما في المشي من جديد، لتعيده الطبيبة إلى وضعه ببطيء، ثم تسرع إلى تغيير كيس الأكسجين وتضيف دقائق أخرى إلى حياته، من حين إلى آخر تنظر إليه كأنها تهوم بقلبها المترع باللهفة اتجاهه، فقد أورق وجهه برغبة كبيرة في رفع يده لكنه لا يستطيع، تبقى الورقة منكمشة بين أطراف أصابعه، و قبل أن تغادر الطبيبة تفكر مليا و هي تقترب من يده لتسحب الورقة، وترفعها أمام عينيه والدهشة ترتسم على ملامحها، ثم يستمر بقراءتها في صمت رهيب يحاصره، كأنه يريد أن يفهمها بسرعة فتتعب عيناه ويغمضها، تتحرك شفاهه مطولا بكلمات خافتة ربما كان يرددها، تعيد الطبيبة الورقة إلى يده دون أن تتجرأ على رفع الستار عن مفرداتها، وتغادر الغرفة و تجر على أعقابها بعض الأسئلة ترددها بين نفسها:

ليتني عرفت محتواها؟ يا ترى ماذا كتب عليها؟

خفتت الأنفاس داخل الغرفة وعمّها الهدوء، إلا قطرات ماء الأكسجين ينحدر في الأنبوب تعزف باستماته ألحانا متفرقة.

تعود السيدة مروة إلى دار الأيتام بعد تأدية واجب الزيارة، وتتابع تحضيرات أشغال الترميم، في انتظار وصول سيلين لقد أنهت جلسات تأهيلها بنجاح، الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، يدخل السيد عمار حاملا معه ملف الوثائق كانت مجموعة من الأوراق تفيد بتأجيل انطلاق عملية الترميم، فهناك خطأ في عقد الملكية قد يتطلب ذلك عدة إجراءات قانونية لتصحيحها، يتجه مباشرة إلى مكتب المديرة مروة فبعد الاطلاع عليها وسماع مقترحاته، تجمع يديها على مكتبها وتنتشر على ملامحها الكآبة ثم تعتذر على إزعاجه قائلة:

عذرا على الإزعاج، لم نكن نتوقع أن هناك بعض الأخطاء في الأوراق ولهذا قد يلزمنا أشهر لتصحيحها. ثم أتبعت تقول:

دع هذا الأمر على عاتقي، سأتصل بخبير قد يفدنا بتوجيهاته.

وقبل أن ينصرف يطفو على السطح كلام يريد أن يفتح له مجالا واسعا لعله يجد له شرحا بسيطا، يُخيّل له أن هذا الشرح الذي ستقدمه السيدة مروة فور سماعها واف وكاف، لكن ليس هناك ما يثبت

ذلك إلاّ أن يسألها مباشرة، وفي غضون هذا الحال يبعث زفيرا ارتخى له صدره قائلا:

أيمكنني ان أسألك سؤالا لو سمحت؟

ثم يقلب أوراقه بين يديه في انتظار ما يفصح عنه لسانها حول هذا السؤال، يتسع المجال للكلام، ثم تنظر إليه قائلة:

ما الأمر؟ تكلم إن كان هناك ما يجب قوله فلن أبخل عليك بشيء.

تراه يتراجع بل يتلعثم لسانه، وقد احمرت وجنتاه ثم يرد عليها:

لا، لا شيء انسي الموضوع.

كم كانت تلك الثواني ذات أهمية للبوح ولو مرة في حياته، حيث تصر عليه المديرة مرة أخرى، وتتجاذب معه أطراف الحديث كقطبين سالب وموجب قائلة:

تكلم، إني أرى الموضوع واضح في عينيك، مند ان رأيتك أول مرة وأنت تحمل بين تقاسيم وجهك غصن يكاد يجف.

يرفع رأسه منصة لما تقوله، كأنها داست على حروف مخبأة في لسانه من غير رأفة، بل تضغط عليها لكي تنطلق في الحديث مبكرا، يكلم نفسه قائلا:

لم هذا التردد؟

هو يسعى مند جلوسه أن يرتب تساؤلاته، وأخيرا يفسخ عقدة لسانه ليقول:

متى بدأت العمل هنا؟

ترفع حاجباها مستغربة في هذا السؤال ثم ترد عليه:

من هي؟ وعمن تتحدث؟

تجيبه بنفسها بعد هذا السؤال مباشرة، لم تنتظر ان يرد عليها قائلة:

آه، قد عرفت لم هذا الخجل. عرفت أنك تتحدث عن سيلين، تلك المسكينة المقعدة، ثم تضيف:

ما علاقتك بها؟

تقاطعه حين هم بالإجابة:

عفوا سأقاطعك، بالمناسبة وقبل ان تجيبني على سؤالي، لقد أنهت جلسات تأهيلها الحركي بنجاح، هي تستعد للمشي مجددا.

لم يفهم من كلامها الذي يتموج بين سؤال وجواب في نفس الوقت، وبين استغراب وابتسامة، حتى الآن لم يتحصل على جواب مقنع أو طريق يشق به صلابة المعاني المبعثرة، يعيد السؤال كأنها في حضرة القاضي: نعم سيرين، لكن مند متى بدأت العمل لديك؟

ثم يضيف سؤالا آخرا قائلا:

هل ستعود إلى هنا؟

تصمت لحظة وهي تغربل المصطلحات لتقدمها له، مصطلحات مفهومة ومقنعة كي لا يكثر من الأسئلة، لقد بدأت تحس بالتعب والإرهاق، هي تحاول إنهاء هذا الحصار في أقرب وقت ممكن، لتغادر مكتبها ثم تنطق في هذا الصمت:

ربما ستعود إلى هنا في الأيام المقبلة، أو ربما لا تعود إطلاقا.

تتحرك لسعات اللهيب في جوفه، وتتسارع نبضات قلبه، ثم يحمل أوراقه ويعتذر قائلا:

اعذرني على الإزعاج، وشكرا على منحي دقائق من وقتك.

يغادران دار الأيتام، فالسيد عمار يتجه نحو المطار للسفر والعودة إلى عمله، أما السيدة مروة لن تضيع المزيد من الوقت لتتصل بسيلين، وتحاول التخفيف من تعبها، كما تحاول إخبارها بما دار بينها وبين عمار.

تدخل سيلين غرفتها، فمنذ وصولها وهي تذلل ساقيها من اجل المشي بطريقة صحيحة، وتتأرجح كشجرة تستقبل رياحا قوية، فتتوقف المزامير عن عزف أحان حزينة، ألحانا بائسة تمتد على جسدها الذي تجاوز عقده الثالث، تمد الخطوات نحو هاتفها وتتحرك كلمات على شفتيها، فتتراقص شوقا لسماع صوت المديرة مروة، في هذه اللحظة يرن الهاتف وتبتهج عيناها قبل ان ترد، ثم ترفعه في لهفة شديدة وهي تتكأ على الطاولة واقفة ثم تقول:

ليس بيني وبينك إلاّ جزء من الثانية.

لم تفهم ما تقصده من كلامها فتسألها:

ماذا تقصدين من كلامك؟

كلغة استثنائية تجمع بينهما، فتسرع إلى تحليلها مبتسمة:

لقد كنت على وشك الاتصال بك، إني اشتقت إليك كثيرا وسأكون عندك إذا صباحا.

قرأت ما خلف هذه الكلمات من معان، كانت تخبرها أنها تتوق إلى إتمام صفقتها التي بدأتها رغم عجزها، فأفرغت ما تحتويه تطلعاتها من غير مقابل، ها هي الآن تحضر لعودتها إلى دار الأيتام بعد نهاية الترميم، استوقفتها المديرة بسطر من كلمات، ترتّبت عنها فوضى تعود في وضح النهار وليتها لم تعد، فتخاطبها قائلة:

لقد تأجلت عملية الترميم، لأن هناك خطأ في بعض الأوراق، ولهذا لا يمكننا بدأ الأشغال إلى حين تصحيحها، لكن لا تقلقي سيكون كل شيء بخير.

تسحبها هذه الفوضى إلى التريث قليلا قبل الأقدام على ما يدور في ذهنها، فبمجرد سماع هذه الأخبار تختار وجهتها بعيدا عن تفاصيل أكثر وضوح، هذه التفاصيل كانت عنوانها مقولة تثقل كاهلها، وتمد حروف مفرداتها كجدع استعصى عليها اقتلاعه، فهي تترسخ في ذهنها كلما استحضرتها، ثم تمدحها المديرة بكلامها الخفيف لتأخذها بألفاظها الجميلة إلى جنة ساحرة قائلة:

هل تحبينه؟ كان يلح على ان أسمعه حديثا عنك، يا له من متعلق. لم أستطع أن أرد عليه إلا أني راوغته قليلا وتظاهرت بالتعب لأنسحب، لقد ظهرت في عينيه رقة كبيرة وحب في أوج الانصهار.

في هذه الأثناء كانت تقع كلماتها مثل قطرة ماء أفاضت الكأس، فلم تستوعب ما تقوله وعم تتحدث، وكل ما فهمته انه ذلك الشخص تجرأ وسأل عنها، ثم ترد كأنها تود ان تنهي الاتصال:

لا شيء من هذا وذلك، لقد تعبت من الوقوف وأريد أن أستريح، سنواصل لاحقا ثم أغلقت الهاتف.

يزيح الطبيب الصمت من وجوه عائلة السيد رمزي، لتبتسم عيناه قبل شفتيه، متجها نحو باب غرفة المريض، فينهض الكل مهرولا متسائلا في فوضى لم تلبث إلاّ أن هدأت، ثم انتصب الكل منصتا لما يقوله الطبيب:

لقد استعاد السيد رمزي عافينه، ولن يضطر للمكوث هنا أكثر.

تعي والدته أن ابنها يستطيع أن يبتسم في وجهها مرة أخرى، بل أكثر من ذلك يستطيع معانقتها. ثم تدخل عليه في فرحة لا تسعها الدنيا، فتندهش لأمره حين وجدته بالقرب من النافدة حاملا في يده تلك الورقة، تقترب منه لتفضفض عنه مشاعره التي تتأجج قبل أوانها،

تعانقه بشدة فتحس بيده تلامس كتفها واليد الأخرى لا تقوى على الحركة، كتمثال مكبل بالأغلال، يطأطأ الطبيب رأسه في حضرتهم لأنه لم يتجرأ على القول إن السيد رمزي قد شّلت يده، في هذه اللحظة هاجت مشاعر الأم واغرورقت عيناها بالدموع ثم قالت:

أنت بخير يا ابني، ستكون بخير ولن ينقصك شيء ما دمت على قيد الحياة.

ثم أضافت بوصت مبحوح هارب من أسره:

لقد زارتك السيدة مروة مديرة دار الأيتام مند أشهر، وهي تشكرك على دعمك حول أشغال الترميم، كما لم يشأ السيد عمار أن يثقل عليك فقد انطلق لينظر فيها فلا تقلق بشأنها، نحن بجانبك والكل يتمنى شفاءك في أقرب وقت.

تهون عليه قبل أن تهون على نفسها، وتقاسمه لحظاته ثم تعيده إلى سكينته، يشد بقبضة يده على الورقة ويدفعها في غيابات جيبه المظلم، ثم يرد عليها:

أنا بخير دعنا نغادر.

يلتقي الجميع في البهو، في حين راح الكل يمطره بأسئلة مختلفة ويسحب جسده في عناق، يمتعض عن القول إنها بداية رحلة جديدة نحو المجهول، عبر مفردات تلك المقولة التي يتذكرها قليلا.

يتشبع الرماد الذي خلفته أحداث مضت، وينهار تفكير سيلين مرة أخرى في هذا المعتوه كما تسميه الآن، هو السيد عمار الذي يسأل عنها وربما لن يتوقف عن البحث أيضا، تخاله يتقمص شخصية القاتل السيد محمود عبد الغني، تستدير إلى مكانها متثاقلة مشيا على قدميها، تحاول التغلب على خوفها من السقوط ثانية، ثم تجلس لتهدأ أنفاسها الغريبة التي استوطنتها بعنف، تكاد تخار قواها وتفقد شجاعتها للتمعن أكثر في مفردات المقولة، فهذا الوضع ادخلها في مشاعر التعب و اليأس، وها هو يقودها نحو عزلة لتفتح بابا للعبور نحو حياة جديدة، سترحل معتمرة طوق النجاة و تقف أمام كبريائها، الذي لم ينهزم رغم المسالك الوعرة، فتقطع نصف مسافة و تفشل في فهم مرادفات المقولة بين لحظات كل شيء فيها غريب، تتنازل عن حقها وترتمي على أرض خراب

كما ترمى البدرة فترى منها غصنا يافعا، لم تعد يافعة و لا أحد يرتوي من عطائها أو يشتهيها، فالنزيف لم يعد يزعجها، و لا معنى للحياة حين تتغير الدنيا و هي تكبر في السن، تنهب وراءها حب لم تقدّره و تصر في القول أنها لم تصل سن اليأس، لتطفو تجاعيد تحت وجنتيها، و ينحل جسمها بعض الشيء لمّا ابتعدت عن راحتها، ظننت أنها توقفت عن قراءة رواياتها قبل أن توقظ بداخلها صوت أمها، فانطلقت في مسافة نحو الغرق أكثر.

تختار لنفسها وجهة جديدة و تركب طائرة الجنون، فهي لا تملك قوة لمقاومة طلب النجدة، لكنها لا تستطيع أن تستنشق عطر الليالي بتلك الساحة العمومية، و تبحث عمن يجالسها ولو ثانية فقط، تنزل عند فصل جديد وفي صمت يطفئ أنفاسها، تنزل في بلد غير بلدها وشارع غير شارعها، تمر بين الحشد وتكتشف ما وراء الجدران ولون الأرصفة، ترهف السمع بين هذا وذاك كمن ذهب عقلها، أو تبحث عن الشوق الحزين الذي هرب من وجهها، تكابد عناء رحلتها الطويلة إلى أن وقفت أمام منزل صديقتها، فتتوغل بتفكيرها العميق، وتحترق بذاكرتها حين تمر أمامها من دون فواصل، ينتهي بها المطاف عند مفردات المقولة الراسخة

الأزلية، إن تجاوزتها العقود فهي تظل شامخة مرتبة في ذاك السطر المستقيم.

تقترب من باب المنزل وتمد خطوتين للأمام وأخرى إلى الخلف، تتنهد في رعشة تغتال أحلامها، ثم تعلقها على مقبض الباب لتدق الجرس، إذا بخادمة المنزل ذات الجسم السمين، والوجه متورم تكاد عيناها تنغلق لصغرها، تنظر إليها نظرة استفهام، ثم تسألها بصوت غليظ:

من أنت؟ وكيف أخدمك؟

تلتفت يمينا ويسارا لتتأكد أنها أمام المنزل الصحيح، كما تتأكد من غرابة هذه المرأة وماذا تفعل هنا، تستدير لمغادرة المكان فتهم الخادمة بالقول:

أتبحثين عن فيفي؟

هذا الاسم المختصر لصاحبة المنزل السيدة فدوى، المتحررة بأسلوبها، والمتفتحة بثقافتها التي تشبه ثقافة الغرب، ويكمن ذلك في

لباسها والأماكن التي تقصدها، تحدق سيلين في هيئة الخادمة مطولا، ثم ترد عليها:

إنها صديقتي، أليست بالمنزل؟

تهب رياح خفيفة فتسرع الخادمة بإدخالها قائلة:

تفضلي واستريحي ريثما تعود.

تجلس على أريكة في صحن الدار، ثم يحل الصمت ضيفا آخرا عليها، فلا تسمع إلاّ أنفاس تلك السمينة تنتشر في أرجاء المنزل، بين شهيق وزفير كأنها ستختنق أو تعاني من صعوبة في التنفس، تصدر من المطبخ القريب ها هي تتثاقل حاملة في يدها بعض العصير، كان عصير الليمون الذي يلاحقها بسرية تامة، تتصاعد الألفاظ من أعماقها وتتطاير في عقلها، ثم تدير رأسها نحو الباب تنتظر وصول صديقتها، تقترب الخادمة منها وتريد أن تسرق بكلامها لمحة قصيرة عنها كأحد الفضوليين، كلامها الذي تحول من غليظ إلى طريف واختلط بفكاهة في وجه آخر يلطف الأجواء، يمر عليها كسحاب مترع بقطرات ماء تطفئ ظمأ العطشان، يتبدلان أطراف

الحديث في ضحك ليرحل الصمت عن المنزل، في هذه الأثناء يرن الجرس مرة ثانية، تنهض الخادمة كالدبة القطبية لا تكاد تمد خطواتها لفتح الباب، إذا بصدى صوتها يرتد قائلة:

مرحبا سيد فدوى لقد عدتي مبكرا ما الأمر؟

لم تأبه لما تقوله الخادمة وتصعد مباشرة إلى غرفتها، ومن غير انتظار تبدأ في تمزيق صوّر الملصقة على الجدران كانت بعضها لشخصيات مشهورة، ثم تسقط بمحاذات السرير تبكي وتصيح بشدة، تسمعها سيلين فتقطع خيوط الدهشة لتتجاوزها عبر الأدراج نحو شقتها، تدخل عليها في تلك الحالة وتجثو بالقرب منها تحتضنها، دون أن تعلم ما يدور في هذه الحلبة من صراع.

تردد السيدة فدوى كلمات امتزجت بشهيق الروح، وتختبأ بين تفاصيل جسدها والحزن يطبق عليها في مشهد مأساوي، ترفع سيلين رأس فدوى بلطف وتطلب منها الكف عن لملمة الجرح قائلة:

أهدئي وأخبرني ما يجري؟

ترد عليها وهي تمسح دموعها فقد تلونت بكحل عينيها:

كل مكان في العالم أصبح يخيفني، أهناك طريق آخر يمكنني السير فيه؟

تجمع غضبها وتقفز على صدرها أفكارا ثم تعلن الهدنة في غياباتها، كأنها بحاجة إلى تعويذة تلقيها على رأسها لتخفف ذلك الصداع الذي يشتعل فيه، يخرجان بعد حين من حلبة الصراع ماسكين بأيديهما إلى غاية اتفاقهما على قضاء فسحة جميلة عبر الشوارع، تصمت سيلين قليلا فتستيقظ فدوى من صراعها وتجره خارج أسوار مشاعرها، ثم تعتذر عم بدر منها قائلة:

أعتذر على إزعاجك، لم أرحب بك كما يجب.

ثم تتابع كلامها:

هل أنت بخير؟ كيف أحوال عملك والساحة العمومية؟

لم تستطع سيلين أن تتجرع ما خلفته وراءها مجددا، وتتمكن من إخفاء علامات الانهيار من وجهها، ذلك الانهيار الذي بسط دراعية عليها في حضرة المفردات ثم ترد:

كل شيء على ما يرام دعنا نخرج لقضاء بعضا من الوقت هذا ما نحتاجه.

تتجاوز عقارب الساعة بعضها في سباق دائم، إنها الحادية عشرا ليلا، التسكع في الشوارع لا يتوقف، تنتظم المسافات بين الثنائيات على طولها، كلما يتجاوزان إحداها تتغير نظرة سيلين، وتتسارع نبضات قلبها وتئن بقايا جفونها، كما يشتعل صهد الحب رغما عنها كأنها تبحث عن سعادة تدوم، ثم تدير وجهها نحو صديقتها فدوة قائلة:

إلى أين نتجه الآن، لقد تأخر الوقت.

تجيبها ببعض المزاح :

أنت ابنة المدينة وتنام باكرا كرضيع بين أحضان أمه.

تضحك بشدة ثم تتابع:

سأريك مكانا عله يغير من تعابير وجهة الشاحبة المملوءة برماد السنين.

بعد برهة يصلان إلى حديقة مطلة على البحر، خيلت لها أنها في جنة ساحرة. لكن ما كان يميزها إنها تكتظ بالثنائيات، وشلة من الأصدقاء يتسامرون تحت أضواء لامعة وموسيقى صاخبة، تتسمر عيناها رافضة التقدم أكثر، فتمسكها صديقتها فدوى من يدها وتقنعها بالقليل من الوقت، ثم يجلسان في زاوية من الحديقة، يتملكها الخوف كلما تمر دقائق، ومن غير مفاجئات يقترب منهم شخص مقهقها، حاملا بيده كأسين يتحرك كالعربيد مرحبا بصديقته فدوى :

مرحبا بك، ألا تشاركيني هذا الكأس؟

ثم يصمت قليلا محدقا في سيلين قائلا:

ومن هذه السيدة تبدو كقمر هارب من جوف السماء.

لم تحرك سلين ساكنا وبقيت تراقب تموجه عن كثب، وهو يتفوه بعبارات كالشاعر يغازلها، ولم يتوقف المشهد عن العرض لتهم بالمغادرة، ومن دون الرضوخ إلى إصرار صديقتها في البقاء، فتختلي بين صخور مطلة على ميناء الصيد، وتسرح بفيض أحاسيسها تسترجع مواطن الغرابة في حياتها، وتكسر زجاجا أعتما مد أجزاءه على جفونها، دون الرأفة لحالها لينتهي كل شيء، لم تر الثوب الأبيض حين تزف به، ثم تنهض وتقترب من مياه البحر وهي تتلاطم، لتقاسمها قساوة الحياة وترسم على جبينها شظايا الانهيار، لم تتمالك نفسها وتجهش بالبكاء المر إلى حين هدأ كيانها، ويتلاشى البدر خلف السحاب كما تغادر الشخصيات من خلف الستار مرددة تقول:

يا ترى هل التعاسة أن نختبأ وراء زجاجة عطر أو صفحة كتاب؟ أن نتلاشى في ظل المفردات ونحن نبحث في أعماقها؟ هل هي رياح تداعبنا بين متاهة العمر وتنثر ما تبقى منا في غيابات اليأس؟

ينهض السيد رمزي في صباح تقسو عليه السحب من كل جهة، والسماء تملأها الكآبة فهي تختلف عن باقي الفصول الثلاثة، تكاد تعصر

غيومها لتمطر، لكنها لم تمطر...تتهيأ، لكن بعد مدة يسمعها تفيض غزارة تطول تارة وتتوقف تارة أخرى، والبرق يكاد يقسمها إلى نصفين، كما يتبعها الرعد كمدفع في أرض المعركة، يرمي بجسمه على أعتاب النافدة ويحني رأسه أمامه كمن يستقل ملكا، تفكيره المدجج بتلك المفردات التي تختبئ بالورقة، تداهمه من حين إلى آخر كوخز إبرة لم يعتد عليها، ثم يجوب بكفه على وجهه مضطربا ومحدقا بها، مفردات تتراقص كفتيات الملهى تغريه بالنظر أكثر والسفر في حقيقتها، معلنة صداع برأسه وشرخ نصفي. يسرع نحو علبة الدواء التي تفوح منها رائحة مورفين، فيسحبه نحو غيبوبة لذيذة حين يدمن عليها، يتناول حبين دفعة واحدة فتسبح في دمه كغواصة تترك الأفق البعيد، لا يدرك معنى الإدمان أو يكون الدواء محرك الأبدان، أصبح يريد هذا الدواء كلما طاله الصداع أو لازمه ذاك الشرخ النصفي، ثم يعود نحو معطفه ليحتمي به من وخز النسمة الباردة التي تجتاح مسامات جلدة، يوظب محفظته السوداء كسواد هذا الفصل دون أن ينسى الورقة، ويهم بمغادرة شقته نحو عمله.

تسهك أقدامه مياه الأمطار حين يمدها، ويختبأ تحت مظلته مقتنعا ببدء التفتيش في وجوه المتسكعين، يبحث عن مرادفات التي أصبحت جزء من تفكيره، مرة يقف ممسكا برأسه لشدة الصداع ثم يتلاشى، ومرة اخرى يواصل سيره مشتهيا تناول حبتي دواء من دون ماء، بل يشعر بها وهي تنتشر فوق لسانه في نشوة كبيرة إلى أن وصل إلى مكتبه، ليجد السيد عمار في منشغلا في قراءة الأوراق، يرفع رأسه وينهض مقدما له التحية البطولية لمقاومته الموت، ثم يسأله:

أهلا سيد رمزي كيف حالك؟

يطفأ السيد رمزي شعلة توهجت في عينيه مند حين ثم يرد عليه:

انا بخير، أحسّ أنني أفضل.

يرمي عليه سؤالا يريد أن يعرف لماذا لم يكمل عمله هناك قائلا:

كيف كانت الأشغال في دار الأيتام؟

يعض على شفة فمه من الأسفل مجيبا بقوله:

هناك خطأ في أوراق الملكية يجب تصحيحها قبل بدء عملية الترميم، لقد أعلمت السيدة مروة وهي على استعداد لتصحيحها، إلى ذلك الحين سنكمل العملية.

يهز رأسه ثم يفرك يديه قائلا:

هون عليك سأنظر في الأمر، انطلق في أشغالك لا احتاج شيئا آخر.

ينصرف السيد عمار وفي داخله جلبة تحدثها حشد من الأفكار، تختلط فيما بينها تخيره بين البقاء في عمله أو شد الرحال بحثا عن سيلين. فيما يتلقى السيد رمزي التهاني على عودته و لم تنقطع الاتصالات إلى أواخر النهار، ثم بعدها يتفرغ إلى الاطلاع على ما تبقى من مشروعه الذي أوشك على نهايته، و يتذكر أن هناك كمية من مادة أساسية يحتاجها، يقلب أوراقه بحثا عن سندات الطلب، و يفتح مذكرته الصغيرة، وهو يقرأ أرقام الهواتف بالتسلسل محاولا الاتصال بأصحابها لتأكيد الطلبيات، بعيد عن زخم الأرقام يتفقد تلك الورقة التي تلازمه منذ دخوله إلى المكتب، يضعها صوب عينية و يعزف على مفرداتها بنفس

الشجن الهارب منها، ذاك الشجن لامرأة لا يعرف اسمها، لكن يتذكر ملامحها في صورة عابرة تكاد تمحى من عينيه، يعاوده الصداع مرات في اليوم و لم يبق إلا الاتصال بالسيدة مروة، في أعقاب هذه اللحظات يخاف أن يخسر في هذا التفكير العميق نظرتها الأخيرة و هي تغادر المستشفى، يخاف أن يدمن عليها كدوائه، كما يريد أن يفهم لما اختارته عندما منحته تلك الكلمات، إنه يتصل قائلا:

مرحبا السيدة مروة، كيف حالك؟

ترد في سعادة كبيرة:

بخير، سعيدة لعودتك.

لا يريد أن يخفي شيئا عنها قائلا:

لقد سررت بزيارتك أنت والسيدة...

هو لا يعرف اسمها حقا فتقاطعه:

اسمها السيدة سيلين.

يتحصل على اسمها من دون عناء، ولا من دون إحراج نفسه أمامها، ثم راح يردده بينه وبين نفسه:

سيلين، سيلين.

تراه لا يتوقف عن السؤال، ويلهث وراء أطماع الحروف، يمنى نفسه بالوصول إليها، ولا يهمه إن كان الوصول إليها يلهيه عن أشغاله، ثم يتابع أنغامه على سؤال أراده قبل أن يغلق الهاتف قائلا:

أيمكنني الحصول على رقم هاتفها؟

تنتفخ وجنتاها عند الزفير، وتغوص قليلا مبتعدة لتستفسر عن نواياه، وتقارن بينه وبين السيد عمار كمقالة فلسفية تستنتج أوجه التشابه، ثم خاطبته تريد إبعاده:

امنحني بضعة أيام، سأرد عليك حين أكلمها.

يفهم من كلامها أن الوقت ليس في صالحه ثم يرد عليها:

حسنا سأنتظر ردك.

يلبس السيد رمزي معطفه دون أن ينسى توقيع بعض السجلات، ثم يطوي تلك الورقة كأنه يخنق مفرداتها، وبعد ذلك يتجه نحو مكتب السيد عمار لأنه لم يشأ أن يزعجه هاتفيا، ليجده مشغولا في وضع آخر اللمسات على أحد مخططات البناء، يطلبه من خلف زجاج الباب الشفاف ملوحا بيده، فيسرع السيد عمار إليه ويبادله التحية، يسحب السيد رمزي يده من جيبه ليرتب على كتفه فتسقط الورقة هاربة، تسقط من غير قصد ومن شدة القلق يضمها بقبضته ويعيدها إلى جيبه، يقاوم توتره ويخفيه قائلا:

نحتاج إلى طلبيات جديدة، يمكنك الآن تأجيل ما كنت مشغول به ونذهب لاقتنائها، وإذا كان هناك ما تحتاجه أعلمني بذلك.

يركبان السيارة، كان السيد عمار هو السائق الذي يشتهي الصمت في هذه اللحظات، ويفتش عن بداية مناسبة للحديث، من حين إلى آخر يتلفت نحو السيد رمزي، فيراه يمزج لغته غير المفهومة ببعض العبارات، خيل له أنه قد سمعها من قبل، ثم بدأ يهز رأسه إلى الخلف متمتما باسم سيلين عدة مرات، فظن عمار أن هناك أسماء تتشابه، ولكنه لا يذرك

حقيقة الأمر أن السيد رمزي يريد فك لغز المفردات التي تختبئ منذ حصوله عليها، ثم يردد بصوت مفهوم قائلا:

سيلين، أين أنت من هذا العالم؟ التعاسة جميلة حين تليها سعادة تدوم، ماذا تقصدين من كل هذا.

يندهش السيد عمار لما يسمعه، وتسقط هذه الجمل على مسمعه كشعلة نار في الهشيم، أخذ يزيد من صمته دون البوح بما يعرفه ثم يقاطعه كصياد يقتنص فريسته قائلا:

من هي سيلين؟ أراك تائها فيها كعاشق.

يتوقف السيد رمزي مندهشا لسؤاله ليرد عليه:

هل أزعجتك بكلامي؟ لا تأبه لما أقوله ودعنا نكمل الطريق.

يتراجع السيد عمار عم أراد أن يواصل فيه كلامه، ثم اخفى كل شيء حتى لا يصبح الوجه الآخر الذي يطارده، وأخذ يفكر في طريقة للانسحاب بتفكيره، بل الاستقالة نهائيا ليركب مجرا معاديا حتى يصل

إليها كأول الواصلين. وفي شهية منه لفض هذه المفاجئة التي تستمر بعد عودتهما، يقرر الدخول عليه بمكتبه ليجده منهكا في فك تلافيف تتشعب حول مفردات المقولة، ويقاسمها مع صداع رأسه، يقدم السيد رمزي توطئة وجيزة عما يجوب في خلجات صدره قائلا:

أنهكني التفكير كثيرا، أتعافى من ألمي لأجد هذه الورقة في قبضتي وألمحها السيدة تغادر دون الإفصاح عن اسمها، أتدري لماذا تفعل هذا الأمر؟

يعلم السيد عمار ما يعلمه السيد رمزي، إنه يعلم أن سيلين تابعت تأهيلا حركيا من أجل الوقوف مجددا بعد محاولة القاتل إنهاء حياتها، لكنه لا يعلم أنها تقاسم السيد رمزي تواطؤها على فهم مفردات المقولة، ثم ينظر إلى الورقة التي تبقت من كتابها المفضل، لم يتحمل بقاؤه وحيدا في معمعة الأحداث، فينفضها على مرات متتالية في سرد قائلا:

يجب أن تعلم بأن الورقة التي بيدك هي للمؤلف محمود عبد الغني، الذي تحول إلى قاتل، وقد تم إعدامه في قضتي قتل؛ الأولى أم السيدة سيلين والثانية قتل السجين.

يترك السيد رمزي الورقة على المكتب وينصت بشدة ثم يسأله:

كيف تعرفت عليها؟

تنحنح السيد عمار قليلا وأجهر بقوله:

منذ كنت سائق سيارة الأجرة، وعندما توفيت والدتها سافرت من اجل مساعدتها في كشف هوية القاتل، لكن خاب ظني فيها حين أدارت ظهرها لي، فعدت خائبا.

تملصت كل الوقائع من بين شفتيه لمدة ساعة، والحديث يدور بينهما، ثم اقتنع السيد عمار انه حان الوقت أخيرا لتقديم استقالته قائلا:

لقد قررت الاستقالة وسأقدمها لك بعد حين.

تصلبت نظرات السيد رمزي لما يسمعه، وهو يحدق مطولا في عينيه، ثم يطلب منه الجلوس ليقنعه بعدم التسرع فيما هو مقدم عليه، تتجمد المسافة بينهما وتصمت الأفواه فلا أحد يفهم إلى أين يتجه، فلم

يتراجع السيد عمار عن الاستقالة، ويغادر مكتبه بضجة أخرى تجوب مخيلته عجز عن السيطرة عليها.

وفي الصباح الباكر يلتحق السيد رمزي بمكتبه، لينظر في جدول أعماله ثم يؤجلها، ويمد الخطوات نحو الشارع القصير الذي يقابله مفترق الطرق على يمين مؤسسته، يوقف سيارة أجرة مباشرة إلى المطار، تهب زوبعة من الأفكار في رأسه، فيجمعها في فكرة واحدة هي الوصول إلى دار الأيتام في أقرب وقت والحصول على رقم هاتف سيلين، يطاله الصداع مرة أخرى فيخرج من جيبه حبتي دواء بسرعة ويتكئ إلى الخلف، أخد السائق يتكلم بعفوية عن مظاهر الحياة في المدينة والربح السريع، كأنه يظهر الشك حول نفسه بطريقة غير مباشرة، فيقاطعه السيد رمزي قائلا:

أسرع قليلا.

لم تبق إلا مسافة قصيرة، و فجأة تتوقف حركة المرور أمام حاجز لدورية الشرطة، و عند وصولهم إليه يطلب الضابط من السائق إظهار

وثائق سيارته ثم النزول، فتراه يغير نظراته بين وثائقه و بين رقم السيارة، ثم يأمر شرطيين آخرين بتفتيشها جيدا، يبدأ التفتيش فيما تنقضي دقائق من وقت السيد رمزي ليزداد القلق، ينادي الشرطيان الضابط لإيجادهما أكياس محضورة، مخبأة بالقرب من مكبر الصوت الخلفي، يتراجع السيد رمزي إلى الخلف ويبدأ في تبرئة نفسه لكن من دون جدوى، لأن الشرطة أصرت على اعتقاله بصحبة سائق السيارة، ويقتادان إلى مركز الشرطة لكتابة المحضر و اتهامهما بحيازة المخدرات، يتنهد السيد رمزي لصعوبة الوضع و يعلق كل شيء إلى ما بعد المحاكمة.

تقف السيدة مروة كعداءة تستعد للجري، أو كمنقب تبحث عن مكان سيلين، تخرج إلى ساحة دار الأيتام ثم تعود إلى ثانية إلى مكتبها، لا تدري ما يتوجب عليها فعله ثم تهمهم:

عقلي مجهد لكن سأتصل بها الآن فربما عرفت أين تكون في هذا الوقت.

تتراقص أناملها على لوحة أرقام الهاتف، تحرك فيه أملا علها تصل إليها في مكالمة، يرن الهاتف مطولا من دون رد، تعيد الكرة مرات لكن يسقط الأمل في بركة من افتراضات تطالها قائلة:

ربما قد تخلت عن عملها أو قد رحلت.

ثم تتابع مسائلة نفسها:

لماذا لا ترد؟ ربما هناك خطب ما.

تموج تلك التوقعات بعقلها، لينتهي بها المطاف تجالس يأسها حين يعانقها، وتجر خيبتها عائدة إلى المنزل.

في احد الأيام تغوص سيلين في وحدتها بين البحث و التدقيق في شريط حياتها، فتنهار أعصابها من كثرة الولوج فيها و ضاعت بين شعابها، تراها تكلم نفسها في كل خطوة تخطوها، و تسأل المارة أسئلة غريبة فينفر منها الجميع، تراها في مشهد أسودّت ألوانه وتبعثرت الحلقات، فتقرر عرض نفسها على دكتور نفساني، تقرأ على لوحة العيادة مكتوب عليها اسمه: الدكتور جورج، كانت العيادة تختلي في زاوية ذاك الشارع

الضيق، وكان الطبيب جورج أجنبي الأصل صاحب النظرات العريضة، والسن الأسود الذي يتوسط فمه، تدخل عليه في أول مقابلة لها بعد أن حددت الموعد، تجلس في انكماش على نفسها لا تسمع منها إلا همهمات، يختصر الدكتور جورج المسافة بتحية، فلم تبال السيدة سيلين لما يقوله، ليفتح باب الأسئلة على مسمعها، ثم يسحب الاستمارة من درج مكتبه، تراه ينظر إليها من تحت النظرات و يؤشر على مربعات بجانب كل سؤال حتى انتهى منها، ثم يدفع بالاستمارة إلى زاوية البعيدة من المكتب، يزيح الستار ليرحل فيها ويدنو من نفسيتها، يتعمق أكثر في خفاياها بإعطائها الحرية الكافية للإجابة، فلم تستطع تذكر الأحداث بالترتيب إلا أنها تتحدث بغرابة، ثم تسكت عنوة في خضم تلك المفردات حين تتذكرها، و ترجع إلى الخلف كأنها خائفة من شيء تراه قائلة:

إنه هو لا لا، خد عني كلماتك لقد أتعبتني.

يعكف الطبيب جورج على مراجعة كل ما تتلفظ به، ويستقر أخيرا بإلزامها راحة نفسية والابتعاد عن الضغوط، ولكن ما بقي يدور في

هاجسه أنها تلقت صدمة قوية امتزجت بين شخص وكلماته، ومن دون سابق إنذار أخدت تكشف انفصال في كلماتها قائلة:

أنت زوجي؟، لا بلى أنت القاتل، لا لا لا لا، ههههههههههه

ثم تقهقه و تمسك بدراعيه في حالة هستيرية، كأنها تريد تعويض النقص الذي فقدته في تلك المفردات، ينهض من مكانه و يقترب منها محدقا في عينيها لمدة طويلة، فتنزعج منه وترميه بالأوراق الموجودة على الطاولة، ظنا منها أنه يغازلها أو يسخر منها، تقع في ارتباك يجعلها تقاوم نظراته وتمسك برأسها، ليقرر في النهاية منحها دواء مهدئ يخفف عنها الأوهام والهلاوس، فقد أصبحت ترى في كل وجه شخصياتها المتمردة، وتعيد كتابة مفردات المقولة على الورقة بعدما طلب منها ذلك، وتجلس ترددها بصوت خافت، ثم تخرج من العيادة في هدوء و حذر منها، تتجاوز كل المارة و تلاحق وجوههم ثم ترفع صوتها مرددة:

التعاسة جميلة حين تليها سعادة دائمة.

تزداد حالة سيلين تدهورا و تتغير ملامحها، و يتبدد الأمل الذي كان يحدوها، في ليلة من ليالي التشرد تقاوم سيلين صراعها الداخلي، المفعم بأنفاس مسكرة كأنها تريد أن تسترجع ذاكرتها المفقودة، بين وخز الألم تعانق المهدئات التي اقتنتها، و تصعد بعدد الجرعات نحو نشوتها التي لم تعد تبالي بها، في حين أصبح مفعولها كغيمة عابرة بلا مطر، تزداد الأوهام و الهلاوس وتنحصر في تلك العبارة، تقاوم ثم تقاوم، لكن تنساق إليها عنوة، تجاريها بالحديث المنفصال عن الواقع، و تعلن عن كبتها المخنوق في مفردات ظلت راسخة في مخيلتها، تقودها نحو الجنون القاهر والاضطراب الأبدي، تعوضه في حركاتها المنتشلة من خلف اللاوعي، وتظهر على ملامحها لوائح الغم واليأس، و ليس بعيدا عن عيادة الطبيب جورج، بقيت تراقبها من مكانها خلف سلالم منزل لأحد قاطني الشارع، تخطو بضع خطوات كمن يعلن بداية مسرحية جديدة، لا تدرك أسباب مجيئها، و فجأة ينزاح الصمت بمداهمتها منزلا لأحد المسؤولين رميا بالحجارة وطرقا شديدا على الباب، فتحدث هلعا وسط أفراد العائلة، كما تكسر

الزجاج الخارجي للنوافذ القريبة من الشارع، و من غير انتظار يسرع صاحب المنزل للاتصال بالشرطة قائلا:

ألو حضرة الشرطي لقد هوجمنا من طرف متشردة، ومعتوهة ترفض المغادرة، لقد أحدثت كسرا على النوافذ وهي ترميها بالحجارة.

تصل الشرطة في الوقت المناسب، وتلقي القبض عليها بعد مقاومتها لهم، تهدأ من حين إلى آخر وهي تجلس على الكرسي في مركز الشرطة، يقترب منها الضابط المسؤول في المناوبة الليلية، يسألها عن سبب فعلتها فتنهض وتصرخ في وجهه بشده، ثم تجلس مرة أخرى وهي تقول:

التعاسة جميلة حين تليها سعادة تدوم.

تمكث ساعة من الزمن في فوضى وصراخ، فيقرر ضابط الشرطة أن يتصل بطبيب من مستشفى للأمراض العقلية ليتكفل بالأمر، على مشارف باب المستشفى يحكمون القبض عليها، ويمنحوها حقنة أفقدتها الوعي، تدخل وراء أسواره بجسم يترنح شمالا ويمينا، فتترقّع الأحلام عنها منسلة، وتنزل دموع الجزع لما أصابها، تلقى على سرير قديم تفوح منه

رائحة المخدر، وبعد مدة تستعيد وعيها وتفتح عينها على طبيبة، كانت تراها وجوه متفرقة تقترب منها، تباغتها بحقنة أخرى تستسلم لها في هدوء تام.

تتراكم الأوهام في رأسها و تتحرك نحو عزلتها، و تكثر الأصوات على مسمعها، أصوات تندفع من الغرف المجاورة لها، أصبح جسمها لا يقوى على الحركة في غيابات غرفتها، و بين رعشة المخدر حين يسري في عروقها، تسود جفونها و تسكنها الهالات السوداء، تغور عيناها هاربة من تلك المشاهد المتكررة، و بعد الحقنة الثالثة تجلس على كرسي منفردة، تارة تمسك برأسها وتارة أخرى تتأرجح كالأرجوحة، وتردد بين شفتيها التي انشربت من فيض الحياة مفردات المقولة من دون ترتيب، كأنها تجمعها كلعبة شطرنج، فكلما تقترب منها الطبيبة تنكمش في زاوية و ترحل في اللاوعي، ترسل ضحكات منفصلة عن واقعها رغم الصمت الثقيل الذي يسكنها.

تمر سنتين، وفي رغبة من طبيب آخر كان يلاحقها بنظراته أينما جلست، أن يتفقد أشياء ترسمت على ملامحها التي تزول، كان يقرأ عند

أوقات فراغه صفحات معتمة على وجهها، ويريد الاقتراب منها عله يسمع منها كلمة تفي بالغرض، هذا الغرض ينتابه كقشعريرة الصباح، ويشفق على حالها كما تشفق الأم على ولدها، ينظم الطبيب إلى لوحاتها الغابرة، بل إلى شخصياتها التي تلاعبت بها في نشوة عابرة، وفي كل مرة يجلس بالقرب منها يسمعها تردد نفس المنفردات المبعثرة على لسانها من دون ترتيب، يأبى إلا أن يرتبها بنفسه ثم يردد معها قائلا:

التعاسة، السعادة، جميلة، حين تليها، تدوم.

كم كانت تلك الأيام قاسية عليها، وما زاد قساوتها تلك الروائح المنتشرة في كل مكان، روائح تختلط بأنين المجانين وأصواتهم، وبأرواح تتلاشى خلف الأسوار، وفجأة ينسل دخان عبر مدخل سلالم النجدة كشبح هائم في أرجاء المستشفى، ثم تتبعه صفارة الإنذار، النار تشتعل ولا أحد يعلم كيف اشتعلت، تمد لهيبها بسرعة نحو الغرف، وتلتهم بشرارتها بقايا الأحلام من دون مقاومة أو صراخ،

يحترق المستشفى على حين غرة، و تسودّ الجدران بدخانها، كما تختلط بقايا الرماد بالمياه المتجمعة هنا و هناك، يتقدم المسؤولون بحثا عن الناجين، وتتبعهم الصحافة لتلتقط أبشع الصور، تحدث بعد عشر سنوات قضتها سيلين بداخله، تتخطى أقدامهم ما تركته النيران من فوضى و تحاصرهم رائحة البشر حين تحترق، و لم تبق إلا سجلات تختبأ في درج مكتب حديدي لم تطاله ألسنة اللهب، و خزانة تنتحب فوقه خوفا من النهاية، يرفعها أحدهم ثم يتفقد محتواها، ليطل منها سجلات تضم أسماء المرضى من بينهم السيدة سيلين، هذا ما ذكرة أحد الصحفيين، يغازل بها صفحات الجرائد، في حين يتربع اسمها على العناوين لفترة وجيزة.

ينتبه السيد عمار من مكانه بالمقهى، وهو يحرك فنجان قهوته كزوبعة تداهم بقايا الأرض، إلى عنوان من عناوين الصفحة الأولى لجريدة تجلس شابا بالطاولة المقابلة له، كتب عليها ارتفاع عدد ضحايا احتراق مستشفى الأمراض العقلية، وتتحاشر الأسماء في أسطر يظهر منها

اسم السيدة سيلين، فتتسع حدقة عينيه ويقترب قليلا ليتحقق في الموضوع أكثر، ثم يطلب من الشاب قائلا:

عذرا، أيكنني أن آخذ من وقتك دقيقتين، أريد أن أطلع على مضمون الصفحة الأولى.

يرد عليه الشاب في لباقة:

حسنا تفضل.

يداهمه الوقت وينسى أمره أثناء قراءة المضمون، لينهض الشاب ويغادر المقهى تاركا الجريدة بين أحضان السيد عمار، وفي برهة من الزمن يرفع رأسه متحسرا، ويتأكد من أن وجهته قد انتهت عند هذا العنوان. يمضي السيد رمزي على محضر الادعاء بالتهمة قبل مغادرته مركز الشرطة، وفي طريقه يقرر اقتناء لوازم مكتبية، ليتوقف عند واجهة المحل الخاص بتوزيع هذه اللوازم، فيسمع من بعض الأشخاص وهم يتناقشون حول أسباب احتراق المستشفي، يقع على مسمعه اسم السيدة سيلين من بين ضحايا هذا الحريق، يتجرأ ويسألهم قائلا:

أحقا ما اسمعه السيدة سيلين توفيت متى احترق هذا المستشفى؟

يجيب أحدهم بحسرة:

نعم، لم يبق إلا رماد تنثره الرياح.

يبتعد عن المكان ويسحب الورقة من جيب معطفه، يتمعن فيها ثم يعيدها إليه ظنا منه انه سيجيب عليها.

☆☆☆☆☆

فواصل مزعجة

بين مفردات مقولة مجهولة لأحد المؤلفين يسكن صراعها الداخلي، يجالسها في عاطفة تولّد فيها فنون الغوص ليريها معنى الحياة، فتصبح أسيرته في كل مرة تفتح فيها كتابها المفضل، تلتهب الأعماق وتصغي إلى سقوطها كلما انقضت ليلة، ويحرك بداخلها تلك الزهرة اليافعة نحو شقاء متجدد، تدنو صامتة كأنها تنظم إلى موكب التائهين، ولم تفق من هذه الغيبوبة، ولم تعترف أنها تسلك الطريق الخطأ، بين انفصال وأوهام تحاصرها في ضياع أبدي، تبتعد حقيقة تلك المفردات التي تتكرر في لوحة هاربة من يد الفنان، تحمل نهاية يرويها رماد السنين الذي تفوح منه رائحة الحريق.

نبيل مواجي

E-mall : wamdaedition@gmail.com
dar.wamda7@gmail.com

Tel : 00213657300415

رقم الإيداع:9-18-719-9931-978

دار ومضة
للنشر والتوزيع والترجمة

9 789931 719189